سلسلة أمراء النصر والتحرير

شبح حزب الله



قصّة شهيد الوعد الصادق

الشهيد محمد قانصوه (ساجد)

إبراهيم منصور



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION


الشَّبح !..



الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION

بيروت. لبنان. حارة حريك. شارع دكاش

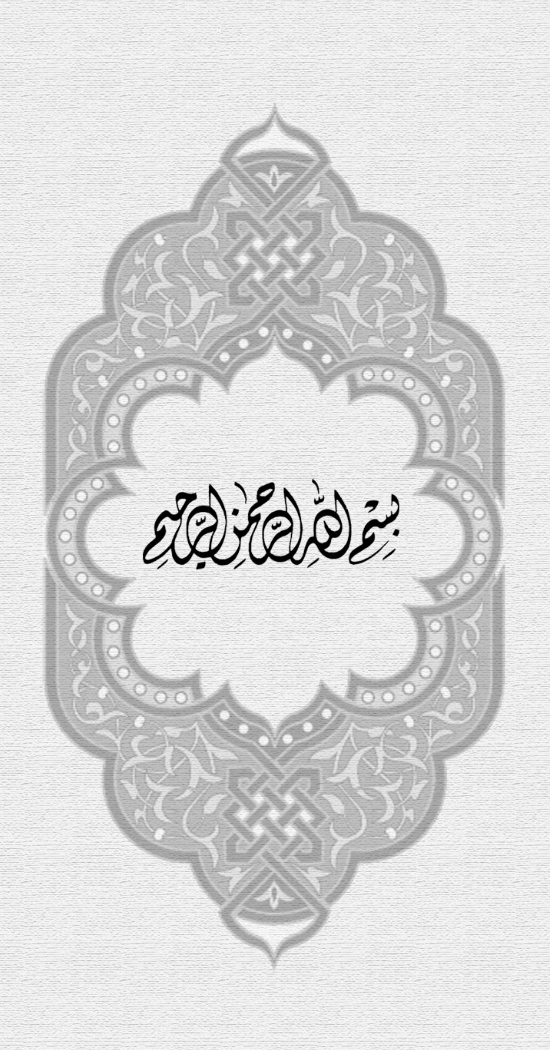
تلفاكس: ٠١/٢٧٣٧٦٦

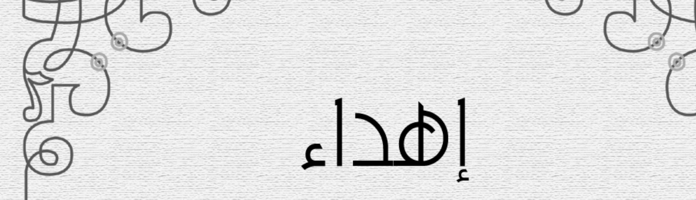
ص.ب: ٢٤/٥٣ - ٢٥/٣٢٧

www.maaref.org Email: info@maaref.org

- عنوان المسابقة: شهيد الوعد الصادق
- عنوان القصة: الشَّبَح!.. (شبحُ حزب الله)
- الكاتب: إبراهيم منصور
- الرعاية: بلدية الهرمل
- المنظم والناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى - تموز - ٢٠٠٩م


بسم الله الرحمن الرحيم



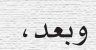
إهداء

إلى سيِّد شهداء المقاومة الإسلامية، السيد عبَّاس الموسوي قدس سره.

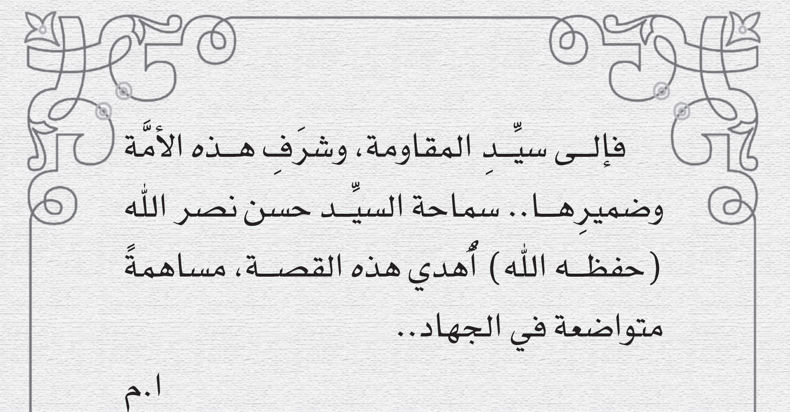
إلى شيخ شهداء المقاومة، فضيلة الشيخ راغب حرب (رضوان الله عليه).

إلى قائد الانتصارَيْن، المجاهد الأسطورة، الشهيد عماد مغنية (رضوان الله عليه).

إلى كلِّ شهيد سَطَّر بدمه الطاهر أروعَ آياتِ البطولةِ والفداء..



وبعد،



فإلـى سيِّـدِ المقاومة، وشرَفِ هـذه الأمَّة وضميرِهـا.. سماحة السيِّـد حسن نصر الله (حفظـه الله) أُهدي هذه القصـة، مساهمةً متواضعة في الجهاد..

ا.م

المقدّمة

لا يجري الحديث في هذه القصة عن الشبح بالمعنى المتعارف عليه، كشبح «الأوبرا» الشهير، مثلاً، أو شبح الميت الذي عاد لينتقم... كما لا يجري عن أي من الأشباح (Ghosts) في القصص الخيالية، أو أفلام الرعب الخرافية.. ليس الشبح، هنا، مثل هذا ولا ذاك.. بل إنه شبحٌ حقيقيٌّ من لحمٍ ودم، وله شأنٌ، بين الآدميِّين، عظيم!.

أنقول، إنه شبح «الدوير»، تلك البلدة الجنوبية العريقة من بلدان وقرى جبل عامل الأشم، التي أنجبت السادة المنتجبين والعلماء الأجلاء، وخرّجت كبار المثقفين وخيرة المجاهدين، وبوركت بالشهداء الأبرار؟!

أم نقول إنه خيال «ذو الفقار» الذي روَّعَ اليهود في «خيبر»، ثمَّ اخترق أطباق الزمن وحجب التاريخ ليظهر، من جديد، في جنوب لبنان فيذيق الصهاينة المعتدين ألواناً من العذاب والذل بقدر كفرهم وجرائمهم؟!

أم تراه طيف طلائع جيش الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف، أتى لينذر

الشّبَح!..

الإسرائيليين وصهاينة العالم بأن ساعتهم قد أزفت، وقصارى جهودهم أن يبدأوا العد العكسي لزوال كيانهم المصطنع وانتهاء جورهم وفجورهم؟!

إن «شبحنا» هو هذا، وذاك... لا مِراء!

ماذا؟ تراني مبالغاً، قارئي العزيز؟! سامحك الله.. تحسبني مبالغاً، وأراني مقصّراً في إنصاف ذلك القائد المجاهد البطل الذي أسماه والداه محمداً تيمّناً برسول الله ﷺ. وأسمى نفسه بـ «ساجد الدوير»، رمزاً لجهاده. أما العدو الإسرائيلي فقد سماه «شبح حزب الله»! وقد صدقوا بهذا!

ألم يكن يقود عمليات الاستطلاع متوغلاً في عمق العدو، حيث لا يجوس في الديار إلا مثله من المجاهدين؟!

ألم يكن يحمل التموين للمرابطين، هنا.. وينقل السلاح والذخيرة للمقاتلين هناك.. ويتنقل ساعات بين الجبال والفجاج والأودية، وهو يحمل الصاروخ على كتفه، غير عابئٍ بالمطر والبرد والثلج.. حتى تورمت وتقرحت قدماه؟!

ألم تسقط فوقه آلاف القنابل والقذائف من الطائرات والدبابات ومختلف أنواع الأسلحة.. حتى لم يبق، في جسمه، موضعٌ سالمٌ من الجراحات البليغة.. فأجريت له عشرات العمليات الجراحية، في المحاور وميادين القتال وبعض المستشفيات؟!

لعلك لم تسمع بتلك السيارة «الفان» التي سقطت فوق صدره، في أحد المواقع التي كان يلفها الضباب.. فتحطمت أضلاعه، وظل

ساعات طويلة تحت السيارة، دون أن يتمكن رفاقه من إنقاذه بسبب كثافة الغارات الجوية التي، يومئذٍ، لم تنقطع.. وقد ظن أنه لن ينجو منها..

لكن اللّٰه العلي القدير شاء ألا يكتب الشهادة له، يومها.. فأرجأها للمعركة الحاسمة!

تريد مزيداً، قارئي الكريم، لتقتنع؟ حسناً، هاك غيض من فيض:

كان «ساجد» مناضلاً لا يهدأ، يكلف رفاقه المجاهدين ما في نفسه من طموح جهادي، لتنفيذ المهمات الكبرى... حتى ليصدق فيه قول المتنبي، واصفاً سيف الدولة الحمداني:

يكلف سيف الدولة الجيش همه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

كيف لا؟! وبطلنا «ساجد» كان يزرع عبوةً هنا.. ويحبك كميناً هناك.. ويقود مجموعة اقتحامٍ هنالك.. ويقف، وحده، في مواجهة دبابة «مركافا»، على بعد أمتارٍ منها، ليصليها بقذيفة من عزم يمينه فيدمرها.. حتى تعجب منه رفاقه المجاهدون فصرخوا: «اللّٰه أكبر! اللّٰه أكبر! ما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ، ولكنَّ اللّٰه رمى»!

ذلك دأبه، وتلك هوايته.. ضجَّ منه الأعداء، وعانوا من بأسه الأمرّين، كان ينتقل برجاله من محور إلى محور، ومن جبهةٍ إلى أخرى.. يسقط فوق رؤوس النخبة منهم (فرقة الإيغوز)، فيقتل من يقتل، ويأسر من يأسر.. لا يرتاح ولا يريح، حتى قال له أحد رفاقه:

الشّبَح!..

- يا أخي، ارحمنا! ألا تشبع من قتل اليهود؟!

ألهـذا شاء الله أن يرجئ شهادته إلى مـا شاء؟ إنَّ لربك في ذلك لشأناً وهو أعلم!

أعرفـت، قارئي العزيـز، لماذا تعب منــه الإسرائيليـون، فأخذوا ينادونه، مراراً، عبر الأجهزة:

- يا ساجد الدوير.. يا ساجد الدواوير! سنقتلك، كما قتلت رجالنا.. سنقتلك ولو دمرنا «بنت جبيل» فوق رأسك!!

ألا ترى معي، في هذا الخطاب، نفس «هند» زوج «أبي سفيان»، في خطابها لشهيد الإسلام «الحمزة» رضوان الله عليه؟!

أعرفت، الآن، لِمَ ارتعد منه العدوّ، وسماه: «شبح حزب الله»؟!!

إذا لم تقتنع بعد، عافاك الله، فإني أدعوك إلى مرافقتي في سيرة هذا المجاهد العظيم، والقائد الشهيد... فلعل حرارة الشك، لديك، تقرُّ وتستحيل إلى برد اليقين.

التّوْأمان..

«خديجــة» فتــاة ريفية من بلــدة «الدوير» الجنوبيــة، تزوَّجت أحد الشبان من بلدتها، اسمه «حسن»، وعاشا حياة بسيطة وادعة...

وبسبــب خدمته في الجيش، كان الزوج يغيب كثيراً عن بيته، تاركاً زوجته الفتية وحيدة في منزل صغير متواضع..

وعلى عادة أهــل القرى والأرياف، أحبت «خديجة» أن توسع بيتها، فتبني فيــه غرفة جديدة، استعداداً لاستقبــال مولودها البكر.. فقد كانت حاملاً في شهرها التاسع..

كان الزوج غائباً، كعادتــه.. والزوجة وحيدة رفيقةُ الحاشية.. وما من معين غير الله.. فانهمكت في متطلبات البناء..

كانــت تحمل كيس «الإسمنــت» على رأسها وتمشي فيــه إلى بيتها، عشرات الأمتار، لتنقل «مؤونة» العمار..

ذات مرة، أدركها التعــب والوهن، إذ تعاون عليها حملان ثقيلان؛ حمــل في بطنها وشيك القــدوم.. وحمل على رأسهــا ينقض ظهرها، وينذرها بإجهاض!

الشَّبح!..

ارتعشت يداها الرخوتان، وهي تنزل الحمل عن رأسها، موصلة إياه بسلام.. ولكن جنينها لم يسلم من الأذى.. فولدته ميتاً!

عادَ الزوج من الخدمة ليتفقد زوجته ويطمئن عن وضعها.. فاستقبلته جارةٌ له قائلةً:

- لا أدري.. أُهنِّئُكَ بالولادة؟ أم أُعزِّيكَ بموتِ الوليد؟!

فأجابها مؤمناً صابراً محتسباً:

- الله أعطى.. والله أخذ.. وعليه العوض!

لكنه مضغ حسرته بصمت.

ثمَّ قرَّ رأيه على إبعاد زوجته عن الأعمال الشاقة في القرية، مصطحباً إياها إلى بلدة «حمّانا»، حيث كان عسكرياً في ثكنتها.

تمر الأيام.. ويعوض الله الزوجين خير العوض.. بنين أربعة، هم على التوالي: أسعد وعباس وعماد وياسر... فقرت بهم عين الوالدين، وشكرا الكريم الرزاق على آلائه سبحانه!

لم يكن راتب الزوج يسمح لهذه العائلة المتنامية بأن تعيش في رخاء ورغد. ولكن الزوجة القديرة كانت حسنة التدبير «تدير شؤون أسرتها بوعي وحكمة، متسلحة بحكمة الإمام علي عليه السلام: «التدبير نصف الغنى»، فكانت، بحقّ، سماءً صافية لعواصف الأيام..

في إحدى السنين حملت «أم أسعد» فثقل حملها، وكبر بطنها على غير عادة، فعانت الأمرين في شهرها التاسع؛ فهي أم لأربعة أطفال.. ترعاهم خلف أهداب العين، وتسهر على راحتهم.. وأعمال المنزل كثيرة مضنية.. ولكن الله أعانها فولدت توأمين جميلين، أسمت

الأول «محمداً» والثاني علياً. كان ذلك في العشرين من شهر آب لعام ١٩٦٦.

يقول الطب إن التوائم نوعان؛ النوع الأول لا يتشابه فيه التوأمان إلا في ما يتشابه فيه الإخوة، عادة.. لأن الله تعالى كونهم في الأرحام من بويضات مختلفة أصلاً. أما النوع الثاني فهو التوائم المتشابهة تماماً، لأنهم تكونوا من بويضة واحدة منقسمة!

والتوأمان، هنا، كانا من النوع الثاني.. شديدي الشبه طولاً وبنية ولون عينين ومفرق شعر.. حتى الوالد كان يضيع بينهما.. أما الوالدة فكانت ـ وحدها ـ تدرك علامة فارقة تميز بها أحدهما من الآخر، فوجه «محمد» أكثر استدارةً، ووجه «علي» أوفر طولاً.. لكنه فرقٌ ضئيلٌ ضئيل..

وكانت الأم تزيد في صعوبة التفريق بينهما، فتلبسهما ثياباً متشابهة، وتنعلهما أخفاف التوائم، وتصفف شعرهما بأسلوب مثيل!

في بداية العام الدراسي ١٩٧٠/ ٧١، أدخل الصغيران إلى مدرسة برج حمود، حيث سكن الأسرة يومئذٍ، ليمضيا فيها أربع سنوات تغطي معظم المرحلة الابتدائية.

كانا يجلسان على مقعد واحد، ويدرسان في كتاب واحد.. فحار المعلمون في التمييز بينهما، ولم يجدوا حلاً لهذه المعضلة إلا أن يكتبوا اسم كل منهما على جبينه! وفي ظنهم أنهم قد نجحوا في ذلك.. ولكن براءة التوأمين الصغيرين لم تخل من ابتداع مقالب ذكية، سواء في هذه المدرسة أو في مدارس لاحقة..

الشّبَح!..

فقـد كان «محمـد» أذكى مـن شقيقه «علـي»، وأكثـر اجتهاداً في الدراسـة. هذا لا يعنـي أن علياً لم يكن ذكياً، لكنـه اطمأن إلى ذكاء أخيـه وراح يعتمد عليه، خصوصاً، فـي الامتحانات الخطية، مستغلاً الشبه الشديد بينهما.

كان محمـد يعمـد إلى انجـاز المسابقـات الخاصة بـه، ثم يغادر القاعة ليعود بعد قليل، على أنه عليّ، ويجلس مكان أخيه، ويُحلُّ له كل مسابقاته لينجحا سوياً.

حتى الوالد لم يسلم من مقالب ولده محمد؛ ففي أحد الأعياد ذهب إلـى أبيـه ليعطيه العيدية، ثم ذهب إلى أخيه علـي. وقد كانا، يومها، يلبسـان ثيابـاً مختلفة الألـوان. فتبـادلا قميصيهما، وعلـي لا يفطن لخطـة أخيه! ثم عـاد محمد إلى والده ليأخـذ العيدية، على أنه علي، هـذه المرة.. وتنطلي الحيلة على الوالـد، فيعطيه «العيدية» مرتين.. أما علي فتثور ثائرته، ويهرع إلى أبيه باكياً، سائلاً إيَّاه بمرارة:

- لمَ حرمتني «العيدية»، بينما أعطيتها أخي مرتين؟!

فيجيبه الوالد باستغراب:

- ولكنني أعطيتك لتوي!

فينكر علي ذلك، ويستمر في البكاء..

كل ذلـك في عيني محمـد، وهو مستترٌ في الزواية لا يتمالك نفسه من الضحك. ثم يأتي إلى أبيه معترفاً بالحقيقة.. فيضحك أبو أسعد من مقالب ولده البريئة والذكية، في آن.. فيغمره بحنان دافق، ويبقي له «عيديته».. ثمَّ يردُّ على أخيه حقه السليب!

إضافةً إلى ذكائه، نشأ محمد هادئ الطبع،دمث الأخلاق، كريماً؛ عـاد، ذات يـوم، إلى المنـزل متأخراً عن إخوته بعـد انصرافهم من المدرسـة، فوبختـه أمه على هـذا التأخير. ولكنها سرعان ما صفحت عنـه وضحكت، في سرها، عندمـا انجلى لها السبب.. لقد رأى امرأة كبيـرة في السن، وهي تحمـل عدة أغراض. فحمل عنهـا أغراضها، وأوصلها إلى منزلها، ثم قفل راجعاً إلى بيته متأخراً.

وكـم كان يعود إلى المنزل جائعاً! أشـدَّ جوعاً من إخوته. فتتعجب أمه من ذلك قائلة له:

ـ لقـد زودتك بطعـام كاف، صباح اليـوم، تمامـاً كإخوتك.. فأين ذهبت به؟ فيجيبها بما يهدئ ثائرتها ويثلج صدرها:

ـ لقد أطعمت رفيقاً لي فقيراً نصف طعامي

فطابت نفس الأم لأخلاق ولدها ودعت له ولإخوته بأيام هانئة.


الشَّبح!..

بين الجنائن والكروم

مـع بداية الحرب الأهليَّة اللبنانية، في عام ١٩٧٥، انتقل أبو أسعد بأسرته للعيش في بلدته «الدوير» صيفاً وشتاءً.

«الدويـر» بلدة جنوبية تبعد عن بيروت ٦٧كلـم، وترتفع عن سطح البحـر ٤٥٥ متـراً. هواؤهـا عليـل، ومُناخُها صحـيّ.. يتخلَّـلُ بيوتها القرميديَّـة حدائقُ وكروم تزخرُ فيها الخُضـار والبقول وشُتول التبغ، ونبتات الصبَّار وكرمات العنب.. إضافةً إلى الزيتون ومختلف الأشجار المثمـرة كالخوخ والمشمش والرمان والتوت والأكّي دنيا والحمضيَّات وسواها..

أمَّا عن الأزهار فحدِّث ولا حَرَج! أمام كلِّ منزل مسكبةٌ من الورودِ والحَبَـق، تستقبلُك روائحُها الفوَّاحة، فتنتعشُ بها الأرواحُ، وتَهْفو لها الأفئـدة، وتطيبُ بشذاها النفوس والأبـدان.. ويُودِّعُك سورُ الحديقة مزنَّـراً بالياسميـن، ومكلَّلاً بزهور الرمَّـانِ النضـرة.. فأنت - حيثما توجَّهتَ - بين خُضرة وزَهَر!

فإذا انطلق الأذانُ يتماوجُ مع زقزقةِ العصافير، ويختلجُ مع النسائم

الشَّبَح!..

العَطِرة.. تَلَقَّفَتْهُ قلوب المؤمنيـن، فراحت تصلي، وتصعد ابتهالاتها نحو السماء لتمتلئ تغريداً وتعطيراً!

فـي هذه البقاع الجميلـة نشأ الفتى محمد وترعـرع محباً للحياة، متفائـلاً بالآتي من الأيـام.. خلال أيام العطـل المدرسية، يستيقظ باكراً على زقزقة البلبل والكنار، فيغسل وجهه، ويتناول فطور الصباح سريعاً ليخرج إلى «الحاكورة» الممتدة أمام البيت، فيتسلق الأشجار، ويداعب بتلات الزهور، ويلاحق الفراشات الزواهي، سيدات الأناقة، لا مِـراء! ثمَّ يمرح على الـكلأ النضير، قبل أن يسـرح ليتفقد أترابه، ويأتـي بهم إلى جنتـه الصغيرة، ليلعبوا في فضـاء الشمس والنسائم العطـرة.. فـإذا أرهقهم اللعب والحـر لجأوا إلى ظـلالٍ دافقة تحت شجـرة فينانة، وراحـوا يرقبـون العصافير تنزلق مـن شجرة وارفة إلـى مرجةٍ نضرة.. فيرشقونها بالحصـى لتعود أدراجها، دافئة، إلى الأغصـان الوريقة، ريثما تبتـرد.. ثم تحلق بعدها، فـي طريقها إلى الشمس.

ذلـك مسرح طفولته، وتلك ربوعه الغنّاء الفيّاضة بالخير والسحر والاشراق.. وبعـد أن يلعب مع أصحابه وإخوته، خصوصاً أخاه التوأم علي، يعود إلى أمه في البيت، فيتسلل خلفها بهدوء، ويفاجئها بصوته مقلـداً مواء الهرة، ثم يغمر خصرها بيديـه النحيلتين، ويدفن رأسه فـي صدرها، ثم يقبل نحرهـا ووجهها، كأنه قد غـاب عنها طويلاً.. وبعـد أن تقبله ضاحكة من حركاته الطفوليـة البريئة، تنصرف عنه إلـى أعمال المنزل، فيسألها عما تحتاج إليـه من الدكان ليقضي لها

حوائجها، أو يساعدها في البيت.

لم يكن الفتى يخدم أمه، وحدها، وإن نالت من خدماته حصة الأسد.. بل كان يخدم الجيران والأقارب، وكل ذي حاجة، بنفس وادعة وخلقٍ كريم.

أدخل محمد إلى مدرسة الدوير الرسمية لينال الشهادة الابتدائية، عام ١٩٧٨، ثم التحق بمدرسة الإخاء المتوسطة في جبشيت ليحوز الشهادة المتوسطة عام ١٩٨٣.

كان في دراسته ناضجاً نشيطاً.. لكنه لم يكتف بالدراسات العلمية والأدبية، فراح يتعمق في المعارف الدينية.

وكان لعام ١٩٨٤ أثرٌ بالغ الخطورة في حياته؛ كان، يومها، في ثانوية جبشيت، في الصف الأول الثانوي. فتأثر بصلاة الجمعة، خلف الشيخ راغب حرب، وأيقن أن العلم النافع هو ما يأخذه عن أئمة أهل البيت عليهم السلام. فترك الدراسة عام ١٩٨٥، وتوجه إلى الجبهة يتدرب على القتال، ويعدّ نفسه لمستقبل جهادي ناصع.

وبعد سنتين عاد ليتابع دراسته، على نفقته، في ثانوية الجهاد الخاصة، في بلدة البابلية، حيث نال شهادة البكالوريا عام ١٩٨٩، وهو يتابع الجهاد، وينهض مع رفاقه بأعباء المقاومة.

في عام ١٩٩٠ كان هذا الفتى العصامي المكافح بأوج نشاطاته العسكرية.. لقد حاول جاهداً أن يوفق بين دراسته الجامعية وواجبه الجهادي، فالتحق بالجامعة اللبنانية، في صيدا، لدراسة العلوم السياسية، على نفقته، لئلا يثقل على أهله. لكنه لم يتجاوز السنة



الأولـى، إذ توقف نهائياً عن التحصيل ليتفـرغ كلياً للجهاد الذي بات غذاءه الفكري والروحي والجسدي معاً!

ساجد الدوير

منذ انخراطه في العمل المقاوم عرف الشاب محمد بـ«ساجد الدوير». لم يكن هذا الرمز الجهادي غريباً منه؛ فقد كان، خلال حياته كلها، ساجداً بحقّ! وقد تعوّد السجود مصلياً خلف أبيه، صلاة الجماعة. ولم يكن عمره، حينها، يتجاوز السنوات الخمس.. ما كان يدرك، بعد، معنى الصلاة أصلاً، فكيف بصلاة الجماعة؟! ولكنها التربية الفاضلة، والتنشئة الإيمانية على حب الله وطاعته، وحب رسول العالمين وأهل بيته المطهرين.

لقد سنَّت جدته لأبيه - رحمهما الله - قاعدة دينية صارمة في منزلها: حرامٌ على المرء أن يأكل رغيفاً من خير الله، إن لم يكن منيباً إليه، مصلياً طائعاً..

فامتثل ولدها أبو أسعد لهذه القاعدة، وأورثها زوجه وأولاده..

في جبشيت، منذ عام ١٩٨٤، كان لحياة الفتى محمد منعطفٌ خطير، كما أشرنا سابقاً.. فقد أحب الشيخ راغب حرب، رضوان الله عليه، وعشق شخصيته وإيمانه العملي المكافح.. فحرص على

صلاة الجماعة، خلفه، وتغذّى على خطبه الدينية والسياسية، تاركاً المدرسة، ظهر كل يوم جمعة ليصلّي خلفه، ويستقي من إيمانه وجهاده ينابيع ثرّة...

وكم تحمل «ساجد» ملاحظات المسؤولين، في المدرسة، جراء غيابه المتكرر عن آخر حصتين دراسيتين، يوم الجمعة! وكم آذته مضايقاتهم التي بلغت حدّ الإهانة.. ولكنه، أبداً، صلبٌ لا يلين، ومصمِّمٌ لا ينثني، خصوصاً وقد تعلق الأمر بسجوده وجهاده.. حتى أذعنت الإدارة لإرادته، فقبلت صاغرة، تغيبه عن تينك الحصتين، يوم الجمعة!

أما صلاة الغفيلة فكان يواظب عليها باستمرار، كل يوم، بين صلاتي المغرب والعشاء، ويسأل الله تعالى الفرج القريب للإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف. وأما صلاة الليل فكانت دائمةً في شهر رمضان المبارك، ومتفرقةً في غيره من الشهور.. حتى إن رفاق الجهاد قد شهدوا له بالمواظبة على صلاة الليل، في المحاور!

الفتى الصغير.. مقاوماً!

أبّـان الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنــان، كان الفتى محمد يتألم لوجـود هذا العدو البغيض، في أرضه. وكان يواظب على الصلاة، في مسجـد الشيخ حوماني في بلدته الدوير، ويستمع إلى الخطب الدينية والسياسية الحماسية، فاشتعلت حرارة الجهاد في نفسه التواقة، منذ الصغر، إلى النضال والشهادة..

كان لهـذا المسجـد أثره الفعـال في انضمام الفتــى، مع مجموعةٍ مــن الفتيــان المؤمنين، إلى خطّ حـزب الله.. فشكل نـواةً جهادية.. مجموعةً من الأفراد المقاومين... بدأوا عملهم بسريةٍ تامَّة، وبجهودٍ فرديَّةٍ أحياناً.

كانــت خطواتهم الأولى رائدةً في الجهـاد، وتدل على مدى التعمق والالتزام بنهج الشيخ راغب حرب.. فوضع محمد، مع هذه المجموعة التــي يقل عددها عن عـدد أصابع اليد الواحدة، لافتــاتٍ تؤيد موقف الشيخ راغب، مثل: «الموقف سلاح، والمصافحة اعتراف..»، ومواقف أخرى تندد بالاحتلال الإسرائيلي..

الشَّبح!..

يومها، استيقظ أهالي الدوير على هذه اللافتات التي علقت سراً، في الليل. وكان هذا الفتى هو أول شخص، في البلدة، قام بوضع الشعارات وتعليقها..

وفي بداية العمل مع المجموعات السرية الأولى، كان يسمع أصوات الأسرى وأنينهم، في معتقل أنصار، بحكم موقعه القريب من البلدة.. فيحزن لهذه الصرخات التي تنبعث ألماً نتيجة تعذيب الجلادين الصهاينة، وعملائهم اللحديّين، للأسرى.

كانت تؤذيه كثيراً تلك المعاناة والآلام.. لكنه لم يقف إزاءها مكتوف اليدين، بل كان يعمد إلى وسائل عدة لإرباك العدو وتعطيل عمله وتحركاته، كقطع طريق الإسرائيليين، ووضع العبوات الوهمية؛ كأن يضع كيس نفايات داخل إطار سيارة، ويصلها بأشرطة كهربائية، حتى يخيل للعدو بأنها عبوة حقيقية.

وعندما يحضر عناصر المخابرات يرتعبون ويعودون أدراجهم ليتصلوا بحاجز «حاروف» ويحضروا دوريات دعم تقطع الطريق من الجهتين. ويظلون هكذا ترتعد فرائصهم من هذه «العبوة» حتى تأتي سيارة أجرة، فيوقفوا صاحبها ثم يرسلوه ليمر قبلهم وتنفجر «العبوة» فيه! فإذا هي كيس نفايات لا غير.. وهكذا كان محمد يتلف أعصاب العدو!

كان لهذا الفتى المميّز سرعة هائلة في التمويه؛ فكثيراً ما كان يضع مثل تلك العبوات، ويحرق الإطارات في طريق الأعداء، ثم يعمد على الفور، إلى غسل يديه جيداً، وتبديل ثيابه، لئلا يشك به أحد،

ولا تلازمــه رائحــة البنزين، أو دهان رش الشعــارات، أو غيرها.. ثم يقف مع جموع المتفرجين ليواكب قلق العدو وإرباكه، وأخذه الأطفال للتحقيق معهم، دون جدوى.. في وقتٍ لم يكن عمر هذا الفتى يتجاوز خمسة عشر عاماً!


الشَّبح!..

شبح حزب اللّه!

نشأ محمد عاشقاً للجهاد، فارضاً موقعاً جديّاً له فيه.. وكان العدوّ الإسرائيلـي قد اعتقـل شيخ المقاومة الإسلاميـة راغب حرب. فراح الفتـى يشارك في الاعتراض والاعتصـام، كما يواظب على الحراسة الدوريـة، باللباس العسكري، وعلى نفقته الخاصة، في البداية، لباساً وسلاحاً..

مـرت المقاومة، في تلك الأثناء، بمرحلة كانت غاية في الصعوبة. فأمـر ساجد مع مجموعة المقاومين في الدوير، بالنزول إلى بيروت، ثم التوجه إلى مناطق إقليم التفاح، ليباشر عمله الجدي المقاوم.

عـام ١٩٨٦، كانـت طبيعـة عمله استطـلاع المناطق التـي ينبغي الهجـوم عليها. فكان يبقى في محاور الرصـد، أسابيع عدة، وأحياناً أكثر من شهر.. فبرز مقداماً جريئاً قوي القلب، ثابت الجنان.. يقحم نفسـه في أشد المواقع خطورةً، غير هيّاب أو وجل.. ويستطلعها بدقة وتفصيـل، محصياً عدد الدبابات أو الآليات الموجودة، ومحدداً عدد العناصـر، وزمن تبديل الحراس وعددهـم.. فسمح له أن يشارك في

العمليات الهجومية..

أول عملية نوعية له كانت، ذلك العام، على طريق الرادار/الرّمانة؛ يومها، قال مسؤول المحور لرفاقه المقاومين:

- تقضي الخُطَّة العسكرية بأن تضربوا آلية للعدو. ويا حبذا لو استطعتم احضار بعض القطع من تلك الآلية، بعد تدميرها.

فردَّ عليه ساجد من بين الجميع:

- إن شاء الله تعالى سنفعل..

- جيِّد، انطلقوا على بركة الله.

وصل المجاهدون إلى مشارف موقع العدو، ونفذت العملية بنجاح، ولكن المقاومين اضطروا، تحت غزارة النيران واشتداد القصف عليهم، أن يتفرقوا. أما ساجد الذي وعد الأخ المسؤول بإحضار قطعة من الآلية، فلم يتراجع، بل أصرَّ على دخول الموقع، رغم استحالة الأمر، تحت تلك الظروف.. فقال له رفيقه حسن:

- إلى أين أنت ذاهب في ذلك الاتجاه؟!

- أريد احضار قطعة من الآلية المدمرة.

- هذا ضرب من الجنون! إن تلك القطعة لا تستحق حياتنا..

- مستحيل.. لقد وعدت القائد!

فدخل ساجد إلى ذلك الموقع البالغ الخطورة، والقذائف تتساقط كالأمطار فتمنع المجاهد من أن يرى رفيقه المجاهد الآخر.. ووصل إلى الآلية، ثم عاد منها حاملاً قطعة سلاح من نوع (M ١٦)، فسلمها إلى القائد الميداني الذي أعجب ببسالته أيّما إعجاب، قائلاً له:

- أنـت مقـاوم شجاع وعنيد، يا ساجد، ولديـك شغف بقتل العدو.. إن لـك مستقبلاً لامعاً، في الجهـاد. أما الآن فتستطيع أن ترتاح بضع ساعـات.. وكن علـى أهبـةٍ واستعـداد للمشاركة في تنفيـذ عمليات جديدة.

بعد فترة من الراحة والكمون، تخللتها عمليات استطلاع لبعض مواقع العدو، في الإقليم، ورصد لآلياته وعناصره وطرق إمداداته.. انطلقت مجموعة من المجاهدين لتدمير أحد هذه المواقع.. ونجحت العملية بالرغم من كثافة النيران التي جوبهوا بها، وتدخل الطيران الذي قصف كل متر مربع، في المنطقة.. فاستشهد أحد المقاومين، وتفرق الباقون في كل اتجاه، ريثما يخف القصف الجوي العنيف.

وصـل، يومها، ساجد إلى مكان ظليل، واستطاع أن يتصل بمسؤول المحور قائلاً له:

- نجحت العملية، بحمد الله، ولكن..

- ولكن ماذا؟

- لقد استشهد الأخ حسن..

- فأين جثته، الآن؟

- فـي أرض المعركـة، قبالة العدو.. والمنطقـة مكشوفة، والنيران غزيرة براً وجواً.. والوصول إليه شبه مستحيل!

عندها، قال له القائد بنبرةٍ حازمة، يخالطها الحنوُّ والرأفة:

- أنـت بطلٌ شجاع، وبعيد الآفاق، فـي بسالتك، يا ساجد.. عد إلى

موقـع العدو، واسحب جثمان الشهيد من أرض المعركة. فلا يجوز أن نترك الشهيد بين أيدي العدوّ، مهما كلَّف الأمر!!

عـاد ساجد إلى أرض المعركـة، فبدت له بقعة من الجحيم! ولكنه أخـذ أمراً مباشراً من قائـده الميداني، ولا بد من تنفيذه.. وهو الذي آلـى على نفسه، منذ بداية عمله المقـاوم، ألا يترك جريحاً أو شهيداً في أرض القتال..

وإذا بـه، مـرَّةً، كالطيف الخفي فـي تنقلاته بين كمائـن الأعداء وتحصيناتهـم.. ومـرَّةً كالليـث الضاري في مواجهة مـن يتصدى له منهـم.. وبشق النفس، وصل إلى الشهيـد.. وبهمةٍ عالية، حمله بعيداً عن أنظـار العدو ونيرانه، وأوصله إلى مكان تجمع المجاهدين، حيث نـال إعجابهم، وتنويه قائد الموقع.. بالرغم من حزنهم لخسارة أحد الإخوة المقاومين.

رؤيا صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف

كان ساجد في الحادية والعشرين من عمره عندما راح يجاهد، في محور اقليم التفاح، ضد العدو الإسرائيلي المحتل.

هنـاك.. كمـا في غيره من المواقـع، تميَّز بين كوكبـةٍ من الشبان المجاهدين، شجاعاً مقداماً، يملك قلباً جريئاً، ويقحم نفسه في أشد المواجهات شراسة وخطورة.. كما تميز بأنه أول الداخلين إلى الموقع، وآخـر المنسحبين منه، حتى يطمئن عـن كل أفراد المجموعة.. وإذا أصيـب أحدهم، ظل معه يؤنسه ويسعفـه، ويضمد جراحه، ثم يحمله خـارج الموقـع بأمان.. ذلك أنه أخـذ على نفسه عهـداً ألا يترك أخاً جريحاً في أرض المعركة، ولو كلفه ذلك حياته!

هذه الروحيـة الجهادية جعلته مميزاً بين أقرانه، فارتاح له رفاقه المجاهدون، واطمأنوا إلى الجهاد معه وتحت قيادته..

ذات ليلـة، فـي منطقـة اللويـزة مـن الاقليـم، رأى أحـد الشبان المقاوميـن، خـلال فترة نومه، رؤيا قذفت النـور في قلبه.. ومع ذلك فقد أصابته بشيء من الارباك والحذر..

وفي الصباح أفصح المجاهد عن مكنون صدره إزاء تلك الرؤيا، قائلاً بجدية:

- يا شباب، اصغوا لي جيداً.. لقد رأيت، الليلة، في المنام، رؤيا نورانية..

كان ساجد في تلك الأثناء، كعادته، يعد فطور الصباح له ولرفاقه المقاومين. فترك إبريق الشاي من يده، وتقدم من رفيقه المقاوم فقال له، وقد أعاره أذناً تواقة إلى الإصغاء:

- ماذا رأيت؟

- رأيت أننا نقيم في منزل صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف.. فرحب بنا. ولكنه طلب إلينا أن نترك هذا المنزل الذي نحن فيه الآن، قبل يوم الأربعاء، أي بعد غد! وقد ألح عليه السلام، عليَّ بالطلب، وفي الموعد المحدد! كما طلب أن ننتقل إلى ذلك الجبل. (وأشار لهم إليه).

أما الشبان فقد رأى بعضهم أنه مجرد منام، وأن «المنامات» قليلاً ما تصدق.. وما أكثر ما تكون أضغاث أحلام!

وأما ساجد فقد كان شديد الإيمان بالمسائل الغيبية، خصوصاً إذا كانت تتعلق بأهل البيت عليهم السلام، فكيف إذا كانت تتصل مباشرة بصاحب الزمان نفسه عجل الله فرجه الشريف؟!

على وجه السرعة طلب ساجد إلى رفاقه أن يتوجهوا إلى ذلك الجبل المعين، ويجهزوا فيه مغارة ليكمنوا فيها ويحسنوا، من حيث، رصد العدو.

فطلب عليٌّ، أحد الرفاق، تأجيل الأمر بقوله:

- إذا انتقلنا، الآن، إلى الجبل، فقد ننكشف، ولطيران العدو، فوق رؤوسنا، صولات وجولات!

فلنرجئ هذه العملية.. أدعى للسلامة وأوخى للحذر!

ورغم ما كان ينضح به كلام الرفيق المجاهد من حكمةٍ وتبصر، فقد رفض ساجد بشدة هذا التأجيل قائلاً، بحزمٍ حاسم:

- إن هذه الرؤيا هي أمرٌ مباشرٌ لنا من صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف، ولا وقت لدينا نضيعه.. نحن الآن، في يوم الاثنين. وما الأربعاء عنا ببعيد. فلننتقل فوراً من هذا المنزل!

وتم الانتقال.. وأنجزت المغارة.. وكانت المواجهة، فعلاً، مع العدو الإسرائيلي، فجر الأربعاء..

لقد نشط، يومئذٍ، الطيران الحربي، وكان أول منزل يقصفه الطيران هو المنزل الذي كان فيه المجاهدون، وتركوه قبل القصف!!

وكانت المواجهة الضارية.. فاضطر المقاومون لمغادرة مكانهم، ومشوا في الأحراج ما يقارب الخمسمائة متر، حتى وصلوا إلى قرب منعطف اللويزة.. ولم يكونوا يرون شيئاً خلف المنعطف..

عندئذٍ وضع ساجد أحد الإخوان على «الدوشكا»، بينما راح هو يحمل القذائف، «والهاون ٦٠»، ويتنقل، بسرعة الشبح، من مكانٍ إلى آخر في المحور، رغم شدة القصف من الطائرات.

كان العدو، في تلك الأثناء، قد وصل إلى «كوع» اللويزة.. فلمع في ذهن ساجد خاطرٌ سريع.. أن يصلوا ذلك «الكوع» سعيراً، بضربات

شديدة مباشرة.. فقال له أحد الشبان المقاومين مستغرباً:

ـ لماذا؟ نحن لا نرى شيئاً.. أتعرف ماذا سيحصل؟!

فأجابه بحزم:

ـ قلت لكم اضربوا الموقع، دون تردد وإبطاء!

فضربوا القذيفة تلو الأخرى.. وكانوا على بعد أمتار قليلة من المنعطف.. ثم ابتعدوا.. وإذا بهم يسمعون صوت ساجد يهلل ويكبِّر.. كان وجهه يشع نوراً، رغم غزارة القصف والإرهاق:

ـ لقد أصبنا آلية العدوّ!

ومن الأمور الغريبة أن معظم الشبان قد أصيبوا، في تلك المواجهة، إلاَّ الحاج ساجد، فلم يصب بأذى! وإذا بأحدهم يقول له ممازحاً:

ـ لا بدَّ أنَّك بسبعة أرواح!

ثمَّ تابع قوله بجدية:

ـ لعلَّ اللّه يبقيك سالماً لعملية نوعية من مستوى كربلاء!

لأجل تلك الكرامة، ولكرامات كثيرة أخر، كان الإخوة المقاومون يرتاحون لوجود القائد ساجد بينهم، وعلى رأس عملياتهم الجهادية.. فهو من الرعيل الأول للمقاومين البواسل.. وقد تدربوا على يديه، وخاضوا معه أشرس العمليات القتالية، في أخطر الجبهات، وأشد المواقع توغلاً في صفوف العدو.. حتى انعقدت بينه وبينهم صداقةٌ متينة، وأخوة دم.. وسرت في شرايينهم كيمياء سحرية تشدهم إليه.. وكم كانت غبطتهم تشتد، عندما يعرفون بأن القيادة قد اختارته قائداً ميدانياً لهم، لينفذوا معه عملية من نوع خاص!

رفقاً بالقوارير

جاء الحاج ساجد أمه، ذات يوم، مبتسماً مستبشراً كعادته.. وبعد أن قبلهـا، لحظت في عينيه لهفةً خاصة، وقـرأت على شفتيه، كلاماً مبهماً.. فسألته:

ـ أرى أن عندك خبراً.. فما الموضوع؟

فضحك وضمها إلى صدره، وقال ممازحاً:

ـ أنت ذكية، طالعة لابنك.

ثمَّ تابع قوله بجدِّيَّة:

ـ أنـا، فعلاً، عندي خبر «أريد أن أفرحك.. أرغب في إكمال نصف ديني.

فصرخت مهللةً مستبشرة:

ـ يـا ألف فرحـة وهنا! هذا والله يـوم المُنى.. أن أفـرح بك، وأرى خلفك.. فاختار ساجد فتاةً مؤمنة ملتزمة، من بلدته، وتزوَّجا.. وكما كان مثـال الابن البارّ بوالدته وإخوته، كذلك كان مثال الزوج الصالح العطوف المحب.

وبالرغـم من غيابه الطويل والمتكرِّر في المحاور وجبهات القتال، لـم يكن مقصِّراً في حقِّ زوجته.. فخلال أيـام راحته، كان يساعدها فـي أعمال المنـزل وتحضير الطعام.. وهكذا تعـوَّد، منذ طفولته في منـزل ذويه.. لم تكن زوجتـه «ناهد» تعرف الدكان، فـي حضوره، أو تذهب إلى السوق للتبضع.. فهذه مهمته، وقد نبعت من نفسه السمحة حباً وكرامةً..

لـم تكن هذه الدنيا الفانية تعني له شيئاً.. فأيقن أن خير الزاد هو زاد التقـوى والجهـاد.. كانت حياته كلها متعلقة فـي ميادين القتال.. هنـاك عالمه، وتلك حياته.. ولكـن لأهله عليه حقاً.. ولزوجته وأولاده عليه حقاً.. فأعطى كل ذي حق حقه..

أمَّـا نفسـه - وهي أيضاً لها عليه حق - فـكان ينكرها.. فحب الإيثار ملك عليه حياته.

قالت له زوجته، ذات يوم:

- بـالله عليـك، إلا أخذتني إلـى الديار المقدسة.. أريـد أن أحج.. أرى الكعبة الشريفة، والحرم الشريف.. الديار التي عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأئمـة أهل البيـت المطهرين.. كما أحـب أن أزور الأماكن المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية، في العراق، وقم ومشهد في إيران.

فأجابها والبهجة تسطع في عينيه، وابتسامته المعهودة تشرق على ثغره:

- يا حبَّ ذا! حباً وكرامةً.. فالحجّ والزيارة أفضل ما يأخذه الإنسان

من هذه الدنيا.

وبما أنه لم يعد، يوماً، بشيء إلا وفى به، فقد وفى بوعده لزوجته. وهو أجمل وفاء لأقدس وعد! فأخذها إلى الحجاز حيث قاما سوياً بالمناسك والمشاعر.. ثمَّ أخذها، لاحقاً، إلى أرض الرافدين، فزارا مقامات الأئمة المعصومين فيها.. ولم يكتف بهذا، بل جعلها، من بعدُ، رفيقته إلى إيران حيث زارا مقام الإمام الرضا عليه السلام، في مشهد، ومقام الإمام الخميني قدس سره، وغيرهما من مقامات أهل البيت المطهَّرين..

في مكَّة والمدينة المنوّرة كان الحاج ساجد يسأل دائماً عن زوجته، وهي في جناح النساء، ويخدمها.. حتى تعجبت الحاجّات من نبل مشاعره ومدى إخلاصه وحُبِّه لزوجته، فقالت لها إحداهنَّ، وقد طرق عليهن الباب:

- قومي افتحي لزوجك الحاج محمد.

فأجابتها بدهشة:

- وما أدراكِ أنَّه زوجي؟!

- ما أدراني؟! وهل يطرق الباب علينا إلاَّ هو؟!

وقالت لها حاجة أخرى:

- نحن جميعاً نخدم أزواجنا ونسأل عنهم، ونغسل لهم ثيابهم، ونحضر لهم الطعام.. أمَّا زوجك فهو الوحيد، بين الحجاج، الذي يخدم زوجته.

وقالت لها ثالثة:

الشَّبَح!..

- هنيئاً لك بهذا الرجل الطيِّب والزوج الصالح! نحن جميعاً نغبطكِ على ذلك.

هكـذا كان ساجد مـع زوجته، في حِلِّه وتَرْحالـهِ.. محبّاً مخلصاً، لا يخدش مشاعرها الرقيقـة بكلمةٍ جارحة.. كان يعتبرها حُقّ عطرٍ، أو قـارورةً من الطِّيب، يخشى عليها من الأذى، عملاً بقول رسول اللّه ﷺ، في حديثه الشريف: «رفقاً بالقوارير».

الرؤيا.. والخلاص!

عاد الحاج ساجد من الجهاد الأكبر، مع أسرته وأهله.. إلى الجهاد الكبير في ميادين القتال..

فــي منطقة جزين، كان ثمة، عدة محــاور عسكرية، ومواقع أمنية للعــدو الإسرائيلي.. من بينها ثكنــة الريحان/ عرمتى، حيث التواجد الكثيــف والنوعــي للإسرائيليــن. فالعناصــر والآليــات والأسلحة.. بأعدادٍ كبيرة..

وبعد عمليــات الاستطلاع التي أخذت وقتاً طويلاً، قررت المقاومة أن تنفــذ عملية نوعيــة جداً ضدهم، حيث تتم إبــادة جماعية للجنود الإسرائيليين وضباطهم، وتدمير آلياتهم..

تســلل المقاومون إلى التلال المشرفة على الثكنة، فزرعوا كمائن، وخبَّأوا أسلحةً وقذائف وذخائر كافية ومناسبة لتلك العملية.

كان ساجد مشاركاً في التخطيط والاستطلاع والتنفيذ.

خلال الليــل، استطاعت دورية إسرائيليــة أن تكتشف، بالصدفة، سلاحــاً نوعياً مخبَّأً في إحدى تلــك التلال المحيطة بالثكنة.. فكثفوا

البحث والنبش ليقعوا على ذخائر وسلاح (١٢،٧)، وأسلحةً مباشرة.. وهذا السلاح ليس من السهل أن يدخل إلى تلك التلال، ويركب ويجهز مطوقاً الثكنة..

وبتحليلٍ من العدو عرف أن عملية نوعيـة في طريقها إلى التنفيذ ضد الثكنـة.. فاتخذ احتياطاتـه، وخطط لهجوم مضـاد مباغت، أو عملية استباقية..

فـي تلك الأثنـاء كان ساجد في إحدى تلك التـلال، كامناً منتظراً لحظـة التنفيذ. فإذا به يرى، في نومه، رؤيا.. رأى شخصاً، لم يحدد ملامحـه، يقول له: «إن الإسرائيليـيـن قادمون إلى هذه التلة. فانهض وغادر المكان مع صحبك!

وبمـا أن الحاج ساجداً يؤمن بالـرؤى والأحلام، فقد استيقظ من نومـه، سريعاً، وتوضَّأ فصلى صلاة الصبح، دون أن يحدث أية جلبة. ثـم أيقظ رفيقه، بالإشارة والإيماء، مـن غير أن يتكلم. ففهم صاحبه بأن عليه الصلاة سريعاً، وأن الإسرائيلي قادمٌ إلى التلة!

أخذ ساجد مكان ذلك الشاب، ريثما ينهي صلاته.. وكان مستعداً للمواجهة.. ثم وزّع بقية الإخوة المقاومين بطريقة قتالية.

وبمجرد أن أطل ساجد والأخوة رؤوسهم، بحذرٍ، من خلف الصخرة، ليرقبـوا الوضع، إذا بالإسرائيليين يطلون برؤوسهم في الوقت نفسه، قبالتهم.. فالتقـى الفريقان وجهاً لوجه، وبـدأت المعركة الضارية.. كان قائد الهجوم الإسرائيلي مع ضباطه، ضمن المجموعة..

والتحـم الفريقان مستعملين أسلحةً متنوعة مثل (M ١٨)، وقنابل

يدويـة.. فأصيب ساجد، في هذه المعركة، مـع عدد من رفاقه، فيما قتـل جميع أفـراد المجموعـة الإسرائيلية المهاجمـة، وقوامها أربعة ضباط، وأربعة جنود!

يومها، قال إسحاق رابين، بالرغم من فداحة خسارته وقتل ضباطه وجنوده: «لقد نجونا من كارثة حقيقية»!


الشَّبح!..

صيّاد العصافير!

لـم يكن ساجد ساعياً إلى الجهاد فحسـب، بل كان عاشقاً حقيقياً للمحاور والبندقيــة.. وبالتدقيق في تاريخه الجهادي وسجل بطولاته، تــرى أن مقاومته امتدت من عام ١٩٨٧، حتى عام ٢٠٠٦، إذ لم تنفذ عملية نوعية، خلال تلك المدة الطويلة، إلاّ وله بصمةٌ أساسيةٌ فيها، من تخطيط، إلى مشاركة في التنفيذ، إلى إدارة معركة ميدانية بنفسه.

وها هي أخطر المواقع والجبهات، في: صيدون، رميت، بئر كلاّب، سجـد، عرمتى، كفرحونة، مليخ، جبل صافــي، اللويزة، الريحان، تلّة الصليبي، العيشيَّة، عين بوســوار، الرّمانة، القبلي، عين قانا، جباع، كفرملكــي، بيت ياحون، بنـت جبيل والغجر.. من البقــاع الغربي إلى الأوســط، إلى الناقورة.. كلها، وغيرها كثير.. تشهد له ببسالةٍ نادرة، وجهاد كربلائي!

في أحد هذه المواقع الخطيرة، طلب إلى ساجد ورفاقه تدمير موقع الأحمديــة، وسحــب بعضـ آليــات العــدو، إذا أمكن. ولكـن الطبيعة الجغرافية والعسكرية لهذا الموقع صعبةٌ للغاية.

كان فيه ثماني دبابات «مركافا». ومقابل هذا المحور وحوله، أرضٌ ممتدة، وهي مكشوفة جرداء، لا شجر فيها.. فلا يستطيع المجاهدون ضربه، ولو من مسافةٍ بعيدة، فهو محصَّنٌ طبيعياً.

ومع ذلك، وبفضل «ما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى»، تمكن الأخوة المقاومون، وفي مقدمتهم ساجد، من ضرب هذا الموقع، عدة مرات، وتحقيق إصابات مباشرة فيه، وقتل عدد من جنوده، وتدمير بعض دباباته..

ويأتي دور الاقتحام لتطهير الموقع وتأمين السيطرة التامة عليه.. ولم يكن ساجد، بحسب خطة الاقتحام، في مقدمة المهاجمين، ولكنه، كدأبه دائماً، كان على رأس الهجوم، مقداماً جسوراً، فاتحاً الطريق أمام رفاقه.

ونفذت العملية بنجاح.. ولكن، قبل مغادرة الموقع، سقط الأخ الصيداوي شهيداً داخله.

كان ساجد يتفقد الموقع، قبل مغادرته، للاطمئنان عن بقية الأخوة.. فإذا بالطيران المروحيّ يضرب الموقع ضربات مباشرة. فأصيب ساجد بقذيفة مزقت رئتيه، فسقط على الأرض، ولم يتمكن من الحراك.

هبَّ لنجدته أربعةٌ من رفاقه، فقال لهم:

- يبدو أن الله لا يريد لي الشهادة، اليوم، بالرغم من إصابتي البليغة.. لا تدعوا هذا العدو الإسرائيلي يكسب شرف أسري! أريد منكم أن تنقلوني إلى مكان آمن، ثم اتركوني وانجوا بأنفسكم.. فلأن يقتل واحدٌ منا (يعني نفسه) خيرٌ من أن يستشهد خمسة!

فطمأنه أحدُ الرفاق، قائلاً:

ـ أنـت لا تترك واحداً منـا شهيداً أو جريحاً، فـي أرض المعركة.. فكيف نتركك؟!

وسحبوه إلى مكان آمن، ثم اختبأوا فيه حتى يهدأ الطيران..

كان ساجد قد نزف كثيراً من الدماء، وهو بحالة الخطر الشديد.. ولكـن الله تعالـى وفـق الإخوان بنقلـه إلى مستشفى جـب جنين، في البقاع الغربي.

لـم يستقبله الأطباء، هناك، لخطورة وضعـه.. فأيقن الجميع بأن الحاج ساجداً سوف يفارق الحياة.. فأخذوا ينظرون إليه والدمعة في أحداقهم، لا يريدون فراقه..

لكن القائد المسـؤول، في المجموعة، نقله على وجه السرعة، إلى مستشفـى الجامعة الأميركية، في بيروت، وألَّح على الأطباء بضرورة اجراء عملية جراحية سريعة، وعلى مسؤوليته الشخصية.

وبقدرة الله، نجحت العملية.. وبقي ساجد في المستشفى عشرين يوماً.. ثم خرج منه ليعود إلى المحاور، كأن شيئاً لم يكن!!

كـم أحب في تلك الأثنـاء، أن يكون في موكب الشهـداء! ولكن العلي القدير شاء أن ينجيه من موت محتّم.. أراد أن يبقيه ليومٍ كربلائي آخر.

بعـد إصابتـه البالغـة تلـك، إضافـةً إلى إصابـات كثيـرة سابقة وجراحات أخر.. شاءت القيادة العسكرية للمقاومة أن تنقله إلى عمل إداري، فقال له المسؤول:

ـ يا أخ ساجد، لقد قمت بواجبك الجهادي على أكمل وجه، فشاركت

الشّبَح!..

في معظم العمليات ضد الإسرائيليين وعملائهم اللّحديين، سواء في الاقليم أو الجنوب.. وقد أصبت، مراراً بإصابات بالغة.. آن لك، الآن، أن تستريح..

فردّ عليه، على الفور:

ـ أستريح؟ّ لقد استشهد العديد من رفاقي أمام عينيّ، وحملت الشهداء والجرحى على كتفيّ هاتين، حتى اختلطت دمائي بدمائهم.. وتقول لي «أستريح»؟! وما زال العدو الإسرائيلي وعملاؤه رابضين على أرضنا، وفوق صدورنا؟! لا أراحني الله إن تركت إسرائيلياً أو عميلاً يرتاح!

فقال له المسؤول مطيباً خاطره:

ـ نحن لن نتركك ترتاح بالكامل، فإن لديك خبرةً جهادية طويلة لا يمكن الاستغناء عنها. لكنك ستحول إلى عملٍ إداري، فتشارك في التعبئة والتخطيط والتدريب والاتصال، هناك مهام نضالية كثيرة غير الجبهة.

ـ صدقني، يا أخي الكريم، إن مكاني ليس هنا.. العمل الإداري يقتلني ببطء.. لا أريد أن أموت على المكتب أو في الفراش.. حياتي هناك، على الجبهة.. أريد أن أقتل الإسرائيليين.. أصطادهم كالعصافير، وأدمّر مواقعهم.. لا تحرموني من أسرٍ جنودٍ للعدو أو سحب بعض آلياته .

أمام إصرار الحاج ساجد، لم تر القيادة بداً من السماح له بالعودة إلى الميدان، شريطة أن يذهب إلى بيته ليرتاح مع أسرته وأهله.. ثمَّ يعود، بعدها، لاصطياد العصافير!

في جفن الردى

لـم تطل إجـازة الأسـد الجريـح، فقطع فتـرة نقاهته وعـاد إلى الميـدان.. لقد اشتاقت رئتـاه المصابتان إلى تنفس هـوا المقاومة، وتنشـق روائح القذائـف والدخان والبارود، بعـد أن شبع – ولعله ملَّ ـ من تنسم أريج الورد والياسمين، من أجواء بلدته العطرة.

كان فـي الاقليـم ومحيطه.. فـرأى إخوانه المجاهديـن يحاولون القيـام بعمليات نوعية في مواقع للعدو شديدة الخطورة. فقال ساجد لأفراد الموقع:

ـ بسيطـة، سنلقن العدو دروساً في فنون القتال لن ينساها على مرِّ الأيام..

فردَّ عليه أحد الرفاق:

ـ ولكـن هذه المواقع صعبة جـداً.. والطرق إليهـا شديدة الوعورة ومنكشفـة.. وقد حاول غيرنا من الإخـوان، الوصول إلى تلك المواقع المحصّنـة مثل العيشيّة وتلال الصليبـي وموقع سجد، وسواها.. ولم يتمكنوا من ذلك.

الشَّبح!..

- حسناً، نرتاح بقية النهار، ونتحرك بعد صلاة العشاء، في عمليات استطلاع، تحت جنح الظلام.. ثمَّ نضع خططاً محكمة لاقتحام هذه المواقع، واحداً واحداً.. نحن، والإسرائيلي، والزمن طويل!

منطقة العيشية وتلال الصليبي معروفة بطبيعتها الجميلة الخلابة. فهواؤها صخريّ وشجريّ عليل، وماؤها عذبٌ فرات، وخضرتُها دائمة.. إنها، بحقّ، بقعةٌ فردوسيَّةٌ على الأرض.. ولكنَّ الاحتلال الإسرائيلي البغيض قد حوَّلها، بمعاونة عملائه من اللحديين، إلى دشمٍ مسلّحة معزّزة بالدبابات والطيران المروحي.. فاجتمعت طبيعتها العسكرية الشديدة التحصين، إلى تضاريسها الطبيعية الشديدة الوعورة والصعبة المرقى إلى درجة شبه الاستحالة.. ممَّا أرهق المجاهدين بأعباء جسام، وتضحياتٍ كبرى دون أن يتمكن أحدٌ من الدنوّ منها! لقد كانت حلماً للجميع...

أما الحاج ساجد فقرر اقتحامها.. وعندما يقرر، فإن لله رجالاً.. جعلته القيادة العسكرية على رأس المجموعة التي نفذت الكمين، حيث بقي أحد عشر يوماً، راصداً مستطلعاً.. وعندما نفَّذ الاقتحام كان شبلاً لحيدرة عليه السلام في مواجهة الأعداء.. فكرّ عليهم، مع رفاقه المجاهدين، يصلونهم ناراً ذات لهب!

أصيب ساجد، في هذه الموقعة الجحيمية، بجراحات نزافة في يده استدعت نقله إلى عين بوسوار حيث تمَّ تضميد جراحه، ليعود بعدها إلى جبهة أخرى..

لم يكن موقع سجد أقلَّ خطورة من سابقه، بل لعله أشد رهقاً

وأدهى.. لأنه موقع عالٍ، والمنطقة حوله، أقل خضاراً وأكثر انكشافاً، مما يجعـل استهدافه حلماً عسير التحقيـق، ولا يتم إلا بشق الأنفس، وبذل المهج والأرواح.

كان ساجـد قد أعدّ، مع صحبه، كميناً قرب تلك المنطقة.. وقفت ملالةٌ للعـدو تحرس الموقع.. رمـى الأخوة، باتجاههـا، عدة قذائف فلـم تصب بأذى.. بينما راحت هي تمشط منطقة تواجد المجاهدين بنيرانها، فأرهقتهم..

يحمل ساجد قاذفـة (٧.B).. يتقدَّم نحو الملالة بخطى سريعة.. وبقلـبٍ مُتناهٍ في الجرأة، يقفُ فـي منتصف الطريق، قبالة الملالة.. بل فـي وجهها مباشرةً.. ويطلـق، باتجاهها، قذيفـةً واحدة لا غير.. أصابتهـا، فعطَّلتهـا، وأشعلت فيهـا النيران! فهلَّل الأخـوان وكبَّروا.. لـم يكن أحدٌ منهم يتخيَّلُ أنَّ ساجـداً، بوقفته تلك، في وجه الملالة، سيخرج منهـا حياً.. كأن الشاعر أبا الطيب المتنبي كان يقصده هو، ويصفه هو، متحدياً الموت، بقوله:

وقفت، ومـا فـي الموت، شك لواقفٍ
كـأنـك فـي جفن الـردى، وهـو نائم!

إن تلك اليد الطاهرة التي أصيبت، في العيشية، وعولجت، في عين بوسوار، ثم أجريت لها لاحقاً، عملية جراحية في مستشفى الجنوب.. هي نفسها التي صلت تلك الملالة سعيرا!

ولئـن خـرج ساجـد سالماً، مـن موقعة سجـد، فهو لـم يسلم في غيرها.. ففي محاور الاقليم، شـارك في كلِّ العمليات العسكرية ضد

العدو وعملائه.. وقاد بنفسه، معظم تلك العمليات، فأصيب أكثر من عشر مـرات، إصاباتٍ متفرقة، في أنحـاء مختلفة من جسمه.. وكان يعالج، في أغلب الأحيان، في الجبهة، لصعوبة الانتقال.

وفـي إحـدى تلـك العمليـات الجهادية، اضطـر سـاجـد لأن ينزل بسيارة «فان» مع الإخوان، إلى منطقة وعرة في منطقة اللويزة (إقليم التفـاح). وهي منطقـة تعد غاية في الصعوبـة والخطورة، لأنها ذات تماسّ مباشر مع العـدوّ، إضافةً إلى أن الضبـاب كان يغطيها، حيث امتنعت الرؤية، وبات سلوك الطريق عسيراً جداً.

عندئذٍ، ترجل ساجد من السيارة، ومشى أمامها ليكون دليل رفاقه المقاوميـن. لكن السيارة انزلقت لوعورة الطريق، وتدهورت، ووقعت على صدر ساجد!

نزل الأخوة من السيارة ليروا أن الترس التفاضلي «Différenciel»، الذي يكون بين الدولابين، هو بالتحديد، ما استقر فوق صدر رفيقهم..

لقـد استحال عليهم، في تلك الظروف الصعبة، أن ينتشلوا جسده من تحت السيارة، لأن المنطقة باتت مكشوفة.. كما كان صعباً إحضار مسعفيـن إلى هنـاك.. فبقي ساجد سـاعـاتٍ طويلةً يتألَّـمُ، ويصبر، ويحتسب.. حتى هدأ الوضع الأمني، فتم سحبه إلى مكان آمن.

كانت أسنانه قد تكسرت، وتكسـرت أضلاعه.. إضافةً إلى إصابة في عينه أورثت ضعفاً في النظر، وظل يعاني منها بقية عمره.

لقـد سطـر، يومهـا، كعادته، آيـةً جديدة فـي التضحيـة والصبر والفداء.

الفرحة الكبرى

تحـت ضربات المقاومين الموجعة، اضطـر العدوّ الإسرائيلي إلى الانسحـاب من بعض المواقـع، والتعويض عنها بتعزيز جبهات أخر.. ولكـن الأبطـال فـي المقاومة، كانـوا لهم، دائمـاً، بالمرصـاد، وفي مقدمتهـم الحاج ساجد الـذي راح يزرع العبـوات، ويضرب الدشم، ويشارك مشاركة أساسية في العملية النوعية التي أدَّت إلى أسر اثني عشر لحدياً عميلاً.. وينقض على العدو، في منطقة القبلي، ويوقع في صفوفه عدة قتلى وجرحى..

ولجراءتـه التـي ليـس لها حـدود، يتعرض لعدد مـن الاصابات، ويعانـي من تـورم وآلام مبرحة في قدميـه، جراء إصابتـه القديمة، فـي ١٣/٩/١٩٩٣ المشـؤوم.. ونتيجة سيره أيامـاً وليالي في الأودية والمنحـدرات الخطـرة، وخوضـه فـي الميـاه البـاردة، ونومـه بين الثلوج..

لكنه، بعد كل إصابة وألم، يقف على قدميه الطاهرين، ويخوض، مع إخوانه الأبطال، غمار المعارك النوعية التي أجبرت العدو الصهيوني

الشّبَح!..

على الانسحاب في ٢٥ أيار عام ٢٠٠٠، من جميع المناطق المحتلة في جنوب لبنان، ما عدا مزارع شبعا وتلال كفرشوبا.

كانت فرحةٌ كبرى يوم انجاب الدنس الإسرائيلي ودنس عملائه اللحديين عن أرض الجنوب الطاهرة.. وحُرر الأسرى من معتقل الخيام.. وكانت أهازيج النصر وأناشيد البطولة والفداء..

وصدق سيد المقاومة حين قال: في ٢٥ أيار من عام ٢٠٠٠، بدأ زمن الانتصارات.. وولى زمن الهزائم!

ومع انسحاب الصهاينة إلى الحدود الجنوبية تغيَّرت قواعد الاشتباك معه.. فأخذ الأخوة المقاومون قسطاً من الراحة، مع بقاء الاصبع على الزناد، وزيادة في الاستعداد، كمّاً ونوعاً، للمواجهة الكبرى مع العدوّ.

طائرٌ خارج سربهِ

بيـن ٢٥ أيـار ٢٠٠٠، و١٢ تموز ٢٠٠٦، كثر تواجد الحاج ساجد مع أهلـه وأهـل بلدته، فعوض والدتـه وزوجته وأولاده، عـن تلك الغيبات الطويلة والمتكررة عن بيته، بدواعي الجهاد.

وفي إحدى الأمسيات، أمام شرفة منزله، في الدوير، أطلق ساجد بـوق سيارته عدة مرات بالطريقة التي تعهدها زوجته، ويعرفها جيداً أولاده.. فهرعـوا إليـه.. إنّ بهم شوقاً طاغياً لرؤيتـه وبه حنين عامرٌ لاحتضانهم.. فاندفع ابنه البكـر علي يقبله بحرارة.. وارتمت زهراء على صدره ضاحكةً باكية.. بينما راح الصغير جواد يثب عليه راقصاً ومداعباً..

أمـا زوجته ناهد فلم تجد لنفسها مكاناً في زحمة الأحبة، فاكتفت بالابتسام والرضا، ودمعة الفرح في عينيها.. حسبها أن حبيب القلب في الديار.. وبعدها، فكل شيء يهون.

وزع علـى أولاده الحلوى اللذيذة التي أحضرهـا لهم، كعادته، بعد كل غيـاب.. وقـدم بسرعةٍ، طعـام العشاء الذي أحضـره معه جاهزاً

ساخناً، عماده اللحم المشوي الذي يحبونه وتتلمظ له الشفاه..

فجلس علي عن يمينه، وزهراء عن يساره، وقبالته زوجته المحبة.. أما جواد فقد أجلسه على ركبته، وراح يطعمه.. دون أن ينسى أو يهمل بقية أولاده وزوجته من اختيار الطيبات لهم.. فيزقهم كما يزق الطير فراخه. ويشاركهم في هذا الطعام الثقيل على معدته التي طال ما عانت من حساسية عصبية.

في صبيحة اليوم التالي جلس الزوجان يرشفان القهوة، أمام الحديقة التي زرع فيها، بيديه، البذور والشتول والبازيلا ومختلف الخضار والأشجار المثمرة.. فسألها:

- ماذا حصل، في البلدة، خلال غيابي؟ أخبريني كل شيء عن الأهل والجيران والأصحاب.. من مات؟ من ولد؟ من دخل المستشفى؟ من تزوج؟

عندما أخبرته بكل شيء، توقف عند خبر وفاة أحدهم، فقال:

- رحمه الله.. سأقوم اليوم بواجب التعزية، إن شاء الله، وأرى ما إذا كان أهله بحاجةٍ إلى شيء، أو خدمة.. هم السابقون، ونحن اللاحقون..

فردت عليه مستغربة:

- ما معنى هذه النبرة الحزينة في صوتك، يا حبيبي؟! رحم الله من مات.. المفروض أننا في فرح بعد عودتك سالماً معافى..

- صدقيني، يا عزيزتي، هذه الدنيا فانية.. ولا تستحق منا أي اعتبار لها.. لا يأخذ الإنسان معه سوى العمل الصالح وفعل الخير..

أمـا والدتـه فلم يشبـع منها، خـلال الدقائق التي رآهـا فيها، في الأمسية السابقة، ففرَّج عليها، قبل ذهابه لشراء الحاجيات لزوجته.. وقبل يديها ووجنتيها.. ثم غمرها واضعاً رأسه على صدرها، كما كان يفعـل خلال طفولتـه.. فبادلته القبل الحارة، وراحـت تضمه وتشمه، كأنها تخشى عليه أن يفارقها، هذه المرة.. فلا يعود.

وقبـل أن يغادرهاإلى السـوق، سألها عن حاجتهـا.. فشكرته على اهتمامه قائلةً:

– الحمد لله، بفضل الله وفضلكم، يا ابني، أنا لا أحتاج إلى شيء.. ولكن.. أختك.. فقاطعها سائلاً:

ـ أختي؟! ما بها أختي؟!

ـ هي بخير، ولكن ابنتها مريضة، وصهرك مشغول بعمله..

ـ إن شـاء الله خيـر.. سأذهب إليها، الآن، لأطمئـن.. وآخذ ابنتها لعيادة طبيب ماهر، إذا اقتضى الأمر.. ثم أتصل بصهري لأطمئنه.

وبعـد أن قـام بواجب الزيـارات لأخته وبقية إخوتـه، وأهل زوجته وجيرانـه.. نـزل إلـى بيـروت لإنجاز بعضـ المعامـلات الرسمية له ولإخوته وصهره..

وقبل أن يعود، عصراً إلى الضيعة، راح يتفقد أصحابه، في بيروت، وبعضـ أهله وأهل زوجتـه، عارضاً عليهـم أن يقلهـم، بسيارته، إلى الدوير، إذا شاؤوا..

في المساء قالت له زوجته:

ـ يصـادف غـداً، عيد ميلاد علي، يـا حاج.. نريـد أن نحتفل به..

وهاك لائحة بالأغراض التي نحتاج إليها.. أريد حفلة غير شكل.. لها طنَّة ورنّة.

فابتسم لها، كعادته، قائلاً:

ـ إن أعياد الميلاد، هذه، لا تعني لي شيئاً.. فهي من عادات البرجوازيين.. ومع ذلك، فأنا مستعد لأفعل أي شيء يسعدك ويضفي جو البهجة والسرور على الأولاد.

وفي اليوم التالي اشترى ساجد حاجيات الحفل، من الزينة والمعجنات والسندويشات والحلويات المتنوعة.. إضافة إلى هدية ولده المحتفى به، وهدية لكل من أخيه وأخته، حتى لا يشعرا بالغيرة..

وأبلغ الأهل والأقارب والجيران بالموعد.. وفي المساء كان ساجد نجم الاحتفال، فهو يصور «بكاميرا الفيديو»، وهو يلقي الشعر والغزل، مبارزاً الآخرين..

لقد كانت سهرةً رائعة.. الكل كان مسروراً.. وهو يضاحك الجميع.. ويمازح الجميع.. ومع أنه يعرف حكمة الإمام علي عليه السلام القائلة: «المزاح جميل.. ولكن اجعله كالملح في الطعام»، إلا أن الحاج «ساجد» كان يُبحبحُ في الملح، انسجاماً مع ملح الساهرين وفكاهاتهم...

هكذا هو دائماً، أمام أسرته وأهله والناس.. مُبتسم ضحوك .. محب عطوف .. مساعد للجميع.. لا يرد حاجة لسائلها، ولو كلفته مالاً ومشقة.. وهو أبداً، متفائلٌ أمام الجميع.. لكنه، في خلوته مع ذاته، كان يشعر في قرارة نفسه، بحزنٍ عميق، لأنَّ معظم رفاقه، في الجهاد، قد استشهدوا.. وهو ما زال حياً.. سرعان ما يصبح وحيداً

بين مقاومين فتيان جدد. وهو يتقدّم في السنّ..لعل اللّه تعالى لا يريد أن يمن عليه بالشهادة.. كم آلمه هذا الشعور؟

«مـا زال العدو الإسرائيلي يحتل أجزاء عزيزة من أرض الوطن.. ومـا زال أسرانا وجثامين بعض شهدائنا، في قبضة العدو.. وأنا هنا، أقيم احتفالاً في بيتي!».

مـرت تلك الخواطر كئيبة، شديدة الوطـأة على نفسه.. أحس بأن هـذا المكان ليس مكانه.. وأن هـذه الدنيا ليست دنياه.. مكانه هناك مـع المجاهديـن المرابطين علـى الثغور.. مـع أنه، هنـا، بين زوجةٍ وأولادٍ طيِّبيـن، وأهلٍ محبين.. فـإن به شوقاً لمعانقة البندقية، وحمل الصواريـخ واصطيـاد الأعداء.. أما هنـا، في بيته، فهـو طائرٌ يغرد خارج سربه!


الشَّبح!..

في خطى محمد ﷺ

دقت ساعة العمل الجدي، من جديد.. فنُمي الأمر إلى ساجد بضرورة التوجه إلى الجبهة.. وهو أمرٌ طال ما انتظره. فكثيراً ما كان يرى مختلياً بنفسه، بعد كل صلاة، يخاطب الإمام الحجة المهدي عجل الله فرجه الشريف، ضارعاً متوسلاً: «عليك السلام، يا إمامي.. إن لم يكتب لي أن أنعم بنور وجهكم، عن قريب، فاشفع لي عند الله لكي يمن عليَّ بالشهادة».

لم تكن زوجته تعلم حجم العملية التي هو مقبل عليها إلا من نوع التحضيرات التي انهمك فيها. فهو كتومٌ جداً، حافظٌ لأسرار عمله، حتى عن زوجته وأهله وأقرب الناس إليه.

لقد لحظت، يومها، أنه يعد لعملية نوعية مختلفة عن العمليات السابقة.. لقد وضع في حقيبته آلة تقييد اليدين، فعرفت أن زوجها مقبلٌ على عملية أسر جنود إسرائيليين.. فكتمت الأمر.

ثم جاءت لحظة الانطلاق.. فودَّع ساجد زوجته وأولاده وأمه وإخوته، ومختلف أصحابه وجيرانه ومعارفه.. على أساس أنه لن يعود

من هذه العملية إلا شهيداً!

وصل إلى الجبهة في الجنوب، فالتقى برفاقه المجاهدين، وسلم عليهم بحرارة.. ثم ودعهم بحرارة قائلاً:

- إذا وفقنا الله في هذه العملية، فستكون من أهم عمليات العز والنصر.. وسيجن العدو الإسرائيلي بسببها.. وقد تكون بداية لحرب شاملة..

اضطلع ساجد بعمليات الاستطلاع التي أخذت وقتاً وجهداً كبيرين.. فعرف مكان الجنود الإسرائيليين المطلوب أسرهم.. وفي أية غرفة يتواجدون.. وخطط لطريقة الدخول والمباغتة والخروج بالأسرى، بسرعةٍ بالغة، قبل لفت نظر العدوّ واتخاذ احتياطاته.

كانت الخطة تقضي بأن يشترك ثلاثة مقاومين في عملية الاختطاف هذه بقيادة الحاج ساجد.

فتوجه الإخوة نحو الهدف.. ولكن أمراً ما حصل، قد يكون سراً من أسرار المقاومة.. فانكشفت العملية للعدوّ، وكانت المواجهة معه ضارية.

قاوم المجاهدون الثلاثة ببسالةٍ نادرة، فاستشهد منهم إثنان.

كان ساجد قد وصل إلى الموقع، وكاد يدخله. ولكن هذه العملية الخطيرة تحتاج إلى ثلاثة مقاومين، لا واحد.. فاتصل بقائد موقعه الذي أمره بالانسحاب الفوري، لأنَّ العملية قد فشلت.. وأن يسقط فيها شهيدان خيرٌ من خسارة ثلاثة.

عاد ساجد إلى موقعه حزيناً متألماً منكس السلاح مطأطئ الرأس،

لأنه لم يحظ، في هذه العملية، بأي من الحسنيين: النصر أو الشهادة! بالرغم من أنه بذل جهوداً مباركة، سواء في مرحلة الاستطلاع، أو في مرحلة التنفيذ.. ولكن «الأعمال بخواتيمها»، بحسب الحديث الشريف.. وكانت خاتمة العمليةعلى غير ما يشتهي وتطيب له نفسه.

إن في التاريخ الإسلامي لعبرة مشابهة من بعض الأوجه؛ ففي غزوة مؤتة، عام ٦٢٩م، قرب ذات الطلح (الأردن، اليوم)، كان عدد المسلمين لا يتعدى ثلاثة آلاف مقاتل.

قابلهم، يومها، جيش للبيزنطين تعداده مائة ألف مقاتل.. يعضدهم مائة آخرون من الأعراب الكافرين، يومئذ!

فاستشهد، في هذه المعركة غير المتكافئة، كثيرٌ من أبطال المسلمين، على رأسهم جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، رضوان الله عليهم.

واعتبر بقية المسلمين أن الاستمرار في القتال، بمثابة انتحار لا طائل فيه وخدمةٍ مجانية للعدوّ.. فآثروا الانسحاب إلى المدينة، حيث لامهم أهلوهم، وحثّوا في وجوههم، التراب، قائلين لهم: «يا فرّار! يا فرّار!».

لكن الرسول الأكرم ﷺ أنصفهم، يومئذٍ، وقدر شجاعتهم وتضحياتهم.. لأنَّ الحرب شجاعةٌ وحكمة.. هي إقدامٌ إذا كان الإقدام شجاعةً.. وإحجامٌ إذا كان الإحجام حكمة.

فقال النبي ﷺ للمسلمين العائدين: «أنتم الكُرّار، بإذن الله».

وصدقت نبوءة الرسول ﷺ، فتتالت انتصارات المسلمين،

بعدها!

وفـي «غـزوة الغجر»، إن صـح التعبير، آثر ساجـد الانسحاب من المعركة، إثر افتضاح الخطة، وفشل العملية، فضلاً عن سقوط بعض الشهـداء. بـل لقد أمـر بالانسحاب إلـى موقعه.. ولـم يكن ذلك عن جبـنٍ أو وهـن.. ولكنها حكمة المقـاوم، أو تكتيكه أمـام تغير ظروف المعركة.

لم يكـن في جسم ساجد موضع سليم من أثـر رصاصةٍ، أو جرح، أو شظيـة.. وكلهـا أوسمةٌ على صدر البطل، وأكاليـل غار تجلل رأسه الشريف!

ومع ذلك، ظلَّ هـذا المجاهد الاستثنائي، يمضغ الحسرة والندم، لأنه لم يوفق في انجاز مهمته. ولكن، ما حيلته وقدر اللّه؟!

أمام ضيق صدره وغمّه، لم يجد راحةً إلا في مقابلة سماحة السيد حسن نصر اللّه (حفظه المولى)، ليبثه شكواه.. فطيب سيد المقاومة خاطـره، ومسـح دمعـة الألم مـن عينيـه، وأنصفه مقـدراً شجاعته وبطولاته، وتضحياته الجليلة..

وكان سماحتـه، يمشـي فـي خطى جـده محمـد ﷺ، عندما قال لساجد: «أنت من الكُرّار، بإذن اللّه!».

الوداع الأخير

إن للنفوس الكبيرة المؤمنة شأناً آخر في الحياة، غير الشؤون العادية المعروفة لعامة البشر.. فهي لا تستطيع أن ترتاح، إذا وجدت الآخرين متعبين. ولا تهنأ بطعامٍ أو شراب، إذا سمعت بأن أحدهم جائع..

كان للحاج ساجد جارةٌ فقيرة مقعدة.. فأخذ يرسل إليها، من طعامه الخاص ما يقيم أودها. وخلال شهر رمضان المبارك، كان يخصص لها، يومياً، إفطاراً كافياً كإفطاره تماماً..

والزوجة راضيةٌ عن أريحية زوجها ونبله، بالرغم من العسرة التي كانت تلم به، أحياناً.. فهي مثله، ذات خلق كريم.

قالت له، ذات يوم:

ـ لقد سأل عنك جارنا «فلان»، يريد منك خدمة..

ـ ألم يذكر تلك الخدمة؟

ـ لا، بل اكتفى بقوله إنه سيأتي لاحقاً.

فلم ينم ساجد، تلك الليلة، مرجئاً زيارة جاره إلى الغد. بل توجه

إليـه، مسـاءً، وسأله عن حاجته.. ولما عرف أنـه يريد منحة دراسية لولـده، نزل في صباح اليوم التالي إلى بيـروت.. ولم يعد، إلى بلدته، مساءً إلا وقد أنجز هذه المهمة الإنسانية.

في تلك الأمسية زارته أمه، في بيته المتواضع، ونظرت إلى الأثاث المتواضع جداً.. الذي لم يغيره منذ سنوات طويلة.. فقالت له:

- برضاي عليك، يا ابني، غير هذا «العفش» العتيق.. اطلِ الجدران.. ادهن الأبواب.. لماذا تهمل بيتك؟! «فرفح» عيلتك..

فأجابها مبتسما :

- هـذا الأثاث يكفينا: الأثاث الجديـد لا يعني لي شيئاً، ولا نستطيع أن نأخذه معنا، يوم الرحيل عن هذه الدنيا.

لـم ترتح أم أسعـد لهذه الإجابة، فألحت عليه بـأن ينفذ ما طلبت منه.. ثم كررت محاولاتها، لاحقاً.. وكان جوابه دائماً، هو نفسه.. إلى أن ظنت أن به عسـرة.. فقالت في سرها: «لعله معذورٌ ينقصه المال فهو ذو عيال، ولا يبخل على أسرته».

فذهبت إليه من جديد. وأخذته إلى ركن مستتر، فقالت له:

- خـذ، يا ابني، هذا المبلـغ.. لا حاجة بي إليه.. ادهن بيتك، وغير الأثاث، وزين السقف بالجفصين.

فأخذ منها المبلغ، قائلاً، بابتسامته المعهودة:

- أنـت معك مصاري؟! المقاومة أولى بهـذا المال.. فالسلاح أهمّ من الجفصين! ثمَّ أرسل المال إلى المقاومة!

لـم تكن زوجته أقـلَّ حماساً من حماتها لتحسيـن المنزل. ولكنها

تعرف أخلاق زوجها جيداً، ورأيه المبدئي في هذه الدنيا.. فهو تلميذٌ عاشقٌ للإمام علي عليه السلام الذي كانت الدنيا، عنده، أهون من جناح بعوضة، أو عفطة عنز!

فسكتت على مضض.. أما هو فكان يشغله شاغل آخر، وهو دائماً مستغرق التفكير فيه.. كان ينتظر ساعة الصفر ليعود إلى عالمه وينفذ تلك العملية التي ينتظرها وتنتظرها الأمة، بفارغ الصبر، ولو كانت روحه فيها!

ويتلقى الحاج ساجد إشارةً من القيادة بأن يكون على استعداد.. فراح يزور الجيران والأهل والأصحاب، من غير إثارةٍ للشكوك والريب.. وفي يقينه أنه يودعهم الوداع الأخير..

قال لزوجته:

- سامحيني، إذا كنت قد قصرت في حقك أو حق الأولاد، خلال غياباتي الطويلة في الماضي.

فأجابته مبتسمةً:

- لا بأس، أبقاك الله بخير، وأبقى نفسك بيننا.. أما التقصير فلست مسؤولاً عنه.. إنها طبيعة عملك الجهادي ومسؤولياتك الكبيرة.. ولكنَّك، بعد كلِّ غياب، لم تكن تقصر أبداً سواء مع الأولاد، أو معي، أو مع أهلك وأهلي.. أنت مفضلٌ على الجميع.. ثم إنك قد أخذتني إلى الحج والزيارة.. ولم تترك منتزهاً لم تأخذ الأولاد إليه، من مدينة الملاهي، إلى النهر، إلى البحر.. لا، لست مقصراً يا حاج.. وعلى كل حال، فالأيام الهنية قادمة إن شاء الله..

- إن شاء الله..

كان جوابه بنبرةٍ حزينة، لأنه يعلم جيداً بأنه، إذا وعد هذه المرة، فلن يتمكن من الايفاء بوعده..

في اليوم التالي، وكان يوم خميس، التقى بأحد إخوانه المقاومين القدامى، كان قد تعرف إليه أيام عمليات الاقليم، وخاضا سوياً، معظم المعارك هناك، وشاهدا رفاقهم المجاهدين يستشهدون، الواحد تلو الآخر.

قال له ذلك الرفيق:

- تعرف، يا أخ ساجد؟ بالرغم من محبتي لجميع الإخوة المقاومين، فأنا لم أرتح تماماً، إلا في العمل معك. أنت شخصية مميزة، يشعر الإنسان، معك، بالطمأنينة، والتفاؤل بالنصر، حتى في أشد المعارك شراسةً وخطراً! وبما أنك لا تهاب الموت، فقد كانت العدوى تسري منك إلينا..

فلم يجبه ساجد إلا بابتسامةٍ دافئة ودفقٍ عاطفيٍّ من عينيه. لقد كان التواضع، على قاعدة أهل البيت عليهم السلام، صفةً متأصلةً فيه.

فتابع صاحبه، بما يشبه المناجاة، والحزن بادٍ في عينيه ونبرة صوته:

- يا أخي محمد، لم يعد لي من الأصدقاء القدامى غيرك.. لقد قلت لي إن طبيعة عملك، في المقاومة، ستتغير. فمتى تتحول إلى العمل الإداري، لأطمئن عنك وأرتاح؟!

قبـل عودته إلى الجبهة، خـاف الحاج ساجد من غضب والدته، أو عدم رضاهـا، على الأقل. فهي لا تنفك تطالبـه بتغيير أثاث منزله.. أحب أن يرضيها، بالرغم من عدم قناعته بهذا الأمر الدنيوي الزائل.. فقال لها، وقد أتته أشد إصراراً:

ـ حسناً، سأفعل ما تريدين.. لا أطلب سوى رضاكِ..

فقالت له ضاحكة:

ـ الله يرضى عنك وعن إخوتك، يا ابني.. الآن أفرحت قلبي..

قضى سحابة نهاره، ذلك اليوم، يصلُ الرحم، كعادته. ولكنه، هذه المـرة، كان يطيل المكوث وفي المسـاء سهر مع زوجته وأولاده، وراح يلاطفهم، ثم أعدَّ لهم العشاء بيديه.. فأكلوا وضحكوا وتسامروا..

وقبـل الذهاب إلى النوم عقد حلقة لطم، فقد كان يحبُّ اللطميَّات كثيراً.. ثم قال لولده عليّ:

ـ بالله عليك، ألست أفضل من باسم الكربلائي؟!

فتضاحكـوا جميعاً، وضحك معهم، بالرغم من معاناته من مرض الشقيقة الذي نادراً ما كان يفارق رأسه.

فـي نهاية السهـرة رأى ساجد أن ابنته زهـراء قد نامت في غرفة الجلوس. فحملهـا على كتفـه إلى فراشها، ثـمَّ قبلَّهـا وغطَّاها، كما غطَّى أخويها.. لم يكن يدري، ساعتئذٍ، أن ابنته ذات الأعوام السبعة، تتحايل عليه، فتمثل أنها نائمة، لكي يحملها ويقبلها..

أتراه كان يودع أحباءه الوداع الأخير؟!



الوعد الصادق

بعـد قيادته لعملية الغجر، تغيَّـرَ ساجد كلياً.. تبدل وجهه السمح، وبدا مغتماً، وقد اختفت البشاشة التي رافقته، طيلة عمره.

لقـد ظنَّ أن اللّه لـن يختاره للحاق بموكب الشهـداء.. وفي الفترة الأخيـرة التي سبقت عملية الوعد الصادق، سمعه أحد رفاق الجهاد، ينادي الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف، بقلبٍ ملؤه الاشتياق إلى الجنَّة.. وراح يسأل اللّه تعالـى، بكرامة الحجة عجّل الله فرجه الشريف، أن يختـاره إليه، في القريب العاجل. فعرف رفيقه أن ساجداً لن يبقى طويلاً في هذه الدنيا.

لم يطل به الأمر حتى استدعي إلى الجبهة. فقال له القائد المسؤول:

- يـا أخ ساجـد، عندك، الآن، فرصـة ذهبية للتعويض عن عملية الغجر.. عملية اليوم بالغة الأهمية، نحن قومٌ، كما قال سماحة السيد الأمين العام، لا نترك أسرانا في سجون الاحتلال.. ولكي نحررهم لا بُدَّ من أن نأسر جنوداً للعدوّ.

فردَّ ساجد على الفور، وقد عاد الإشراق إلى وجهه، ولمعت الفرحة في عينيه:

الشَّبَح!..

- أبشر، يا أخي.. سأبذل دمي ومهجتي فداءً لمصداقية سماحة السيد حسن، لنثبت للعالم كله بأن وعده هو الوعد الصادق!

في ١٢ تموز من عام ٢٠٠٦ شارك ساجد مشاركةً فعالة وأساسية في هذه العملية التاريخية التي أسفرت عن مقتل ثلاثة جنود للعدو، وأسر جنديين، وضعهما ساجد وثلةٌ من رفاقه المجاهدين في «الرانج» الأسود، ثم توجهوا به إلى جهة مجهولة!

وتصدق رؤيا سيد المقاومة.. إذ كان ساجد من الكرار بإذن الله!

ويجن جنون العدو الإسرائيلي لعملية الأسر هذه التي مرغت رأسه بوحل الهزيمة والعار. إذ كيف لثلة من المجاهدين أن يتجاوزوا تحصينات العدو، ويستهينوا بقدراته، ويحطموا أسطورته التي اكتسبها بمجازره الوحشية في حق الأبرياء العزل.. ويجعلوه سخرية أمام العالم، وهو الذي أعدَّ نفسه ليكون أقوى قوةٍ في الشرق الأوسط؟!

فكان عدوان تموز عام ٢٠٠٦.. وتستدعي القيادة الميدانية الأخ ساجداً ليدير المعركة في منطقة بنت جبيل، وهو بها خبير خبير.. ألم يغنم، سابقاً، ملالة إسرائيلية في بيت ياحون، وصعد على ظهرها يلوح بعلم الانتصار، ولما شاهد صورته على شاشة المنار، اتصل بإدارتها لتحذف هذا المشهد، حتى لا يعرف أنه مقاوم؟!

فمن غيره، إذاً أحق بشرف الجهاد، في حرب الوعد الصادق؟!

كان موقعه المقاوم، في بداية حرب تموز، في مدينة صور. وكان يرسل إلى رفاقه وأهله، خلال المعارك، عبارات متفائلة لرفع

معنوياتهـم. كمـا كان يبعـث إشـارات معينة، مثـل: «انتظـروا اليوم مفاجأة!». فما يلبثون أن يسمعوا بتفجير المدمِّرة الإسرائيلية «ساعر ٤»، أو تدمير دبابة وقتل من فيها، أو غيرها من بطولات المقاومة.

وكان لساجـد، فـي صور، رفيـق مقـاوم.. جاهدا معاً منـذ بداية الحـرب. ولمَّا اقتضـت الخطة أن يتوجه ساجد إلـى بنت جبيل، دنت لحظة الفراق.. فسلَّمه ساجد بندقيته الـ«BKS»، وودَّعه بحرارة، وبكى عنـد الـوداع.. أتراه بـات على يقين، هـذه المرة، مـن أن الله تعالى سيستجيب لدعائه بالاستشهاد؟!

وكيـف دار الأمـر، فقد توجَّه إلـى بنت جبيل، حيـث أدار المعركة بحكمـةٍ وبسالة، وكان مشرفاً علـى عدة محاور أساسية، في المعارك (بنـت جبيـل، تلة مسعود، مـارون الراس، بيت ياحـون، عيناتا، عيتا الشعب، وسواها)، تلك البلدات الجنوبية الصامدة الأبية، التي سطر فيها المجاهدون أروع آيات البطولة والفداء، ودمروا عشرات دبابات «المركافـا»، مفخـرة إسرائيـل، حتـى قال جنـود العـدو: «لقد بدت «المركافا» أشبه بقرص زبدة تحت سكين مقاتلي حزب الله!».

كان ساجد، حينها، كعادته في كل حرب، يقوم بعمليات الاستطلاع والتموين والتخطيط والمواجهـة.. وكان يوجّه المقاتلين الشبان نحو المحاور قائلاً لهم:

ـ لـن نعطي العدو شرف الاستيلاء على مدينـة بنت جبيل، لما لها مـن خصوصية ورمز، بسبب خطاب التحرير لسماحة السيد (حفظه الله)!

فيرُدّ عليه الأخوة المقاومون:

- لن يدخل الإسرائيلي بنت جبيل، أو أية بلدة جنوبية أخرى، ونحن أحياء... إن وطئ أية أرض جنوبية فعلى جثثنا!!

فارتاح لتصميم رفاقه، وراح يظهر استبسالاً غير طبيعي في حركته وإدارة المعارك؛ لقد كان يلتحم مع فريق «الإيغوز»، على بعد أمتار قليلة تفصله عنهم.. وبكل جرأةٍ كان يواجههم مدججين بأشد الأسلحة فتكاً.. فلا يخشاهم.. بل يصطادهم كما لو كانوا أرانب مذعورة!

لم يكن يدير المعركة فيوزع المقاتلين فحسب، أو يعتمد على مخططات تكتيكية لآلية الهجوم والانسحاب.. بل كان يخطط، ويوزع المهام، ويشارك في صلب المعركة.. فيصعد، بطريقته، إلى متن الدبابة، واضعاً العبوة على بابها الفوقي، ليفجرها ويقتل من فيها، ثم يعود أدراجه، بخفة الطيف أو الشبح!

وعلى ديدنه، راح ينتقل من هذا الاقتحام إلى ذاك الالتحام، ومن هذه المواجهة إلى تلك، حتى أرهق الأعداء، كما أرهق رفاقه المجاهدين، فخاطبه أحدهم قائلاً: «يا أخي، ارحمنا ولو للحظة.. ألا تتعب؟! ألا تمل من قتل الصهاينة؟!».

بينما هو في أوج معنوياته العالية..

وفضلاً عن استبساله في المعارك، كان يبث روح الشجاعة والبسالة في نفوس المجاهدين، في مختلف المحاور.. فيبعث لهم رسائل الطمأنة بأن النصر الحتمي آتٍ لهؤلاء المجاهدين الذين

راهن عليهم سماحة السيد.. كما كان يرسل أقصوصاتٍ صغيرةً إلى مسؤول الإشارة لكي يوزعها، بدوره، على المجاهدين، فيجدوا فيها رسائل التشجيع والصبر على الجهاد، والأخبار السارة من مثل: «سوف تسمعون، قريباً، بمفاجآت سارة»، قاصداً بها ضرب البوارج الحربية.. فيندفع هؤلاء الشبان صاعقة في القتال، واستبسالاً للنصر!

إزاء هذا الزخم الجهادي والقوة التي ملكها ساجد، وأعطاها المجاهدين الذين كانوا يسمعون صوته على الجهاز، فيعرفون أن المعركة ما زالت باوجها، وأن الجبهات مشتعلة بانتصاراتهم.. كان يقابل ذلك، إحباطٌ معنوي هائل في صفوف جنود النخبة من العدو الإسرائيلي، حيث كان الوقت يمر عصيباً جداً عليهم، في كل المواقع والمواجهات التي كان يديرها ساجد!

ولكي لا يفقد العدو توازنه المعنوي في المعركة، راح ينادي هذا المقاوم العنيد، باسمه الجهادي «ساجد»، عبر الأجهزة ومكبرات الصوت، في صفوف المجاهدين: «ساجد، بدنا إيَّاك.. بدنا نقتلَكْ».

كان ساجد يسمع هذه التهديدات فيتصل بالمجاهدين ويطمئنهم قائلاً:

- إن العدو قد بات في مرحلة من الضعف، فقد فيها توازنه.. وهذه أولى بشائر انهزامه!

ولما لم تفلح تهديدات الصهاينة بقتل ساجد، في ثني إرادة المجاهدين، وفلِّ قوتهم، عمد العدو إلى السِّعاية والمكر، ومحاولة

تضليل المقاومين، بندائه عبر مكبرات الصوت:

ـ لقد قتلنا ساجد الدوير.. تخلصنا من ساجد الدوير..

خلال هذه الحرب النفسية، قال أحد الأخوة:

ـ أما إنَّهم ينعونك، يا ساجد!

فرد عليه بابتسامته التي لم تفارق ثغره، وهو في أحلك ظروف القتال:

ـ لا بأس.. نحن، وهم، والتاريخ.. أحلامٌ ودم.. فليذوقوا طعم غضبنا!

ويعود الإسرائيلي، بعد عجزه عن تثبيط همم المقاومين وإيهان قوتهم، إلى أسلوب حرب الأعصاب، منادياً: «لقد قتلنا، فعلاً، ساجد الدوير».

فما كان من ساجد إلاَّ أن قال للمجاهدين:

ـ هذا الإسرائيلي لم يعد يحتمل قدرتنا على الجهاد، واستبسالنا في الدفاع عن الأرض.. فأبشروا بالنصر!.

وضع الحاج ساجد، في بنت جبيل، كلَّ قوته، وبذل أقصى جهوده، بالرغم من الاصابات القديمة المتجدِّدة التي كان يعاني منها، والتي كانت تُعيقُ حركته في بعض الأحيان.

وفي الفترة الأخيرة من الحرب لم تعد قدماه وركبتاه تطاوعه على المشي.. إلاَّ أن عزيمته الفولاذيَّة لم تكن تشعره بأي تعب أو وهن.

بعد إحدى المواجهات مع جنود العدوّ، عاد ساجد مبللاً بالدم، فقال له أحدُ الأخوة:

- يبدو أنك أصبت، يا أخ ساجد. دعني أرَ إصابتك وأُضمِّد لك جراحك.

فابتسم ساجد، ولم يجب.. إلاَّ أنَّ مقاوماً آخر، كان شاهداً على بسالته، أجاب قائلاً:

- الآن، هو غيرُ مصاب.. إنَّما هذه الدماء التي تراها على ثيابه، هي دماء الأعداء، لكثرة ما قتل منهم، فكثيراً ما اشتبك معهم، ولمسافة أمتار قليلة جداً!

تمدد ساجد على ظهره، لحظات، ليسترد أنفاسه.. فلاحظ الأخوة في الموقع، أن قدميه قد تورمتا، وأصابهما أذى كبير.. فاضطر إلى ترك الموقع، إلى حين، والدخول إلى مستشفى الشهيد صلاح غندور، ليعالج هناك.

في المستشفى، اتضح للأطباء أن رِجْلَ ساجد تحتاجُ إلى راحةٍ تامَّة. وهذا يستلزمُ عدم قيامهِ بأي حركة، أو المشي عليها. وتقرر تثبيتها في قالب من الجفصين.

ثارت ثائرة «الأسد الجريح»، فاعترض بشدَّة، على وضع الجفصين قائلاً للأطباء:

- أنا لا يمكن أن أقعد في السرير كالعجائز.. في هكذا ظرف.. بينما رفاقي يقاومون، وأهلنا الأبرياء العزل يستشهدون، أو يهجّرون!

فقال له الطبيبُ المعالج:

- ولكنَّ رجلَك متأذِّية، ووضعها حرج، وقد تصاب بالالتهاب «الغرغرينا»! وربما البتر، إذا لم تنل الراحة التامَّة، والعلاج الضروري!

فرد عليه ساجد بحزم من أسلم أمره لله، ورهن نفسه للشهادة:

- ما زالت الحرب، في أولها.. ولن أموت في السرير مقيداً بالجفصين.. سأتابع القتال مهما كلف الأمر.

أذعن الأطباء لقرار ساجد، فقال أحدهم:

- لأول مرةٍ أرى شخصاً يملك مثل هذا القدر من القوة والعزيمة والاطمئنان!

ويتابع هذا المقاوم العنيد إدارة المعركة من المستشفى، متحركاً على قدم بائسة، بلا جفصين! وإذا به يوزع الأخوة المجاهدين، في الأماكن التي يحتمل منها طروق العدو وتقدم آلياته وجنوده.. ثم يعود إلى سريره ليحتسي كوباً من الشاي.

وقد سمعه الأطباء والممرضون يردد، مراراً، هذه العبارة: فشر الإسرائيلي يدخل إلى بنت جبيل، وأنا فيها. ولئن دخل، فعلى جثتي!».

دخل أحد الممرضين إلى غرفة ساجد، فقال له:

- هيا، يا بطل! سنضع لك المصل الشافي بإذن الله.

فرد عليه، وعلامات التعب الشديد وآثار عدم النوم بادية على وجهه:

- اتركني نصف ساعة لأرتاح.

فتركه الممرض، بعد أن رآه وقد وضع قبعته على وجهه لينام.

وما إن عاد بعد أقل من ربع ساعة، حتى فوجئ؟ بالغرفة خالية.. فركض يسأل عن المقاوم ساجد.. فأجيب بأنه طلب تأمين مشدّ

«رصـور»، لرجليه، وأصـر على طلبه حتـى أمنوه له.. فوضعـه مؤقتاً ليستطيع السير على قدميه، ثم غادر المستشفى ليكمل إدارة المعركة في الميدان!

واستمـرَّت عمليـات الاقتحام والالتحـام.. كانت ضربـات الحاج ساجـد ورفاقه المجاهديـن مُؤلمةً موجعة.. أظهروا فيهـا أروع آيات التصـدي والقتال.. وضربـوا أمثلة، في المقاومـة، يحتذي بها جميع المناضلين الأحرار في العالم!

ضربـوا عن بعد، فأصابوا.. والتحموا عن قُرب، فأوجعوا وغنموا.. وكان لساجد، شرف الغنيمة لعتادٍ عسكري إسرائيلي، وعد نفسه بأن يقدمـه هدية لسماحة السيد حسن، بعـد انتهاء الحرب.. فهل أمهلته الحرب ليفي بوعده!

وبـإرادة صلبـة لساجـد وكل المجاهدين، وبتوفيق مـن الله، يمنع العـدو من الدخـول إلى عاصمـة التحريـر، أو وطء عتبتها! حتى لقد اعترف جنود العدو وضباطه بأن «هذه البلدة مشؤومة وملعونة»!

فسُرَّ ساجد لهذا الخبر. ولكنه راح يبكي عندما سمع رسالة السيد حسـن للمجاهديـن، ورهانه عليهـم.. فإذا به يعاهد ربـه ونفسه بأن يبقى هو وإخوته المجاهدون، معقد الأمل والرجاء.

بعـد مُضيّ حوالى ستـة وعشرين يوماً على بدء الحـرب، وبعد أن خاض هذا البطل أروع الالتحامات مع القـوات الإسرائيلية، من بيت إلـى بيت، ومن تلةٍ إلى تلة.. جاءت ليلـة أحسَّ فيها، خلال وجوده في أحد منازل بنت جبيل، بحركة خفيفة خارجاً.. فقال للشباب:

ـ هناك حركة في الخارج، فانصتوا..

ـ لعلَّه صوت حيوان..

أجابه أحد الأخوة.. لكنَّ ساجداً رفض الركون إلى هذا الاحتمال الذي قد لا يكون في محلِّه، فقال لهم على الفور:

ـ ارموا القنابل!

فخرجوا من المنزل ورموا القنابل.. وإذا بعويل مجموعة الإيغوز، أو النخبة، قد علا وتردَّدت أصداؤه في الأجواء المظلمة!

ولم يرتح ساجد لهذا المآل المشرف، أو ينم على حرير النصر.. بل راح، مع إخوانه المجاهدين يمشِّطون المكان للاطمئنان إلى خُلُوِّه من الأعداء.

وتقضي الخطة الميدانية بأن ينتقل القائد ساجد، مع رفيق له، إلى بيت ياحون، ليدير المعركة من هناك..

لذا ودَّع أصحابه قائلاً مطمئناً: «إن شاء الله، إن لم ينسحب العدو، يوم الجمعة، فإن انسحابه سيكون بالتأكيد، يوم الاثنين، آخر أيام المعارك. وسوف ترون النصر الإلهي بأعينكم».

فمرَّ في أماكن شديدة الخطورة، وتسلل بين اليهود دون أن يروه، وقد أربى عددهم ـ ليلتئذٍ ـ على أربعمائة جندي..

فكانت تلك من كرامات الحاج ساجد الذي كان يتلو، بصمت، قول الله تعالى: «وجعلنا من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً، فأغشيناهم فهم لا يبصرون» صدق الله العلي العظيم.

هناك.. على الطريق إلى بيت ياحون، تعرَّض لإصابة جديدة في

رجله، بسبب شظايا القذائف المتطايرة حوله.

فهل بقي فيها موضعٌ لإصابة؟! عندها تذكر قول الشاعر:

فـصِـرْتُ إذا أصَـابَـتْـني سهامٌ

تَكَسَّـرَتِ النِّصـالُ على النِّصالِ

لكنَّه، على عادته، لم يأبه لتلك الإصابة، بل تابع السُّرى حتى وصل إلى منزل يعـود إلى أحد أقرباء رفيقه الذي كان يجاهد معه، سابقاً، في بيت ياحون.

كانـت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصـف ليلة الثالث عشر من رجـب.. فاستلقى في ركن المنزل يسترد أنفاسـه، وقد بلغ به الرهق منتهاه..

فـي صبيحة اليـوم التالي، قام من نومـه، فاغتسل ونشـر ثيابه.. فاعترضه أحد الإخوان ممازحاً:

- أيستحـم أحدٌ في هـذا الوقت العصيب؟! نحن لا نعرف متى تغير الطائرة، أو يحدث إنزالٌ علينا!

فأجابه الحاج ساجد المؤمن المطمئن إلى لقاء ربه:

- لقـد ابتـلَّ جسمي وثيابي من دماء العـدو.. أتريدني أن ألقى ربي وأنا متنجس بدمائهم؟! إنه غسل الشهادة، يا صديقي!

فرانـت لحظـات مـن الصمـت والوجـوم.. قطعها ساجـد بقوله لصحبه:

- هيَّا، هيَّا لنفطر.. سوف يكون هذا آخر إفطار لي معكم.

كانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف، صباحاً.. فتحرك ساجد،

وصعد إلى سطح المنزل، وراح يعطي التعليمات للأخوة، في المحور، لإكمال خطة الدفاع والهجوم..

ولعلَّ العدوَّ، خلال ذلك، كان يلاحق حركة ساجد وصوته عبر الأجهزة، أو تقنيات الأقمار الصناعية، أو بتقنية الأشعة ما تحت الحمراء، أو ربما من طائرات الاستطلاع (M.K).. وكلُّها احتمالاتٌ واردة.

وما إن نزل عن السطح، ودخل الغرفة، فاستلقى على «الكنبة»، حتى أغارت طائرة استطلاع مستهدفةً منزلاً مجاوراً لمكان تواجد المقاومين، فطار زجاج النافذة فوق «الكنبة»..

هنا، طلب ساجد إلى المجاهدين أن يسرعوا في مغادرة المنزل، فيما بقي هو ليُضَمِّد جراح أحد الإخوة، وقد أصيب في يده جراء الغارة، وراح ينزف.

خلال تضميد الجراح، قال الرفيق:

- لقد صدق وعدك لي، يا أخ ساجد..

فأجابه، وهو منهمكٌ في عمله، باختصار:

- كيف؟

- أتذكر جوابك لي عندما سألتك، في أول الحرب: «هل تخرج جثماني من أرض المعركة، في حال أنني استشهدت؟».. يومها، تأملتني جيداً.. فوجدتني طويل القامة، عريض المنكبين.. فاحترت في الإجابة.. إذ كيف يمكنك أن تحمل جثتي الضخمة؟.. لكنك سرعان ما حسمت التردد، فقلت لي مؤكداً: «اطمئن، سأحملك، إذا

استشهدت قبلي».. وها أنا جريحٌ بيـن يديك، وأنت تضمد جراحي.. فأنا الآن، مرتاح ومطمئن لأنك لن تترك جثتي في يد الأعداء!

فـرد ساجد علـى هـذا الـكلام الوجدانـي الصـادق، بابتسامته المعهـودة، ثم ذهـب لينتعل حذاءه، وهـو يقول لصاحبـه المصاب، مسرياً عنه:

ـ هـذا الإسرائيلـي لن يدعنـا نهنأ بثياب نظيفـة.. لقد غبر لي كل ثيابي..

ومـا أنهى كلامه حتـى جاءت الغارة الثانية، فـي المنزل، فأصيب ساجد، هذه المرة، إصابةً بالغة طرحته مضرجاً بدمه الطاهر.. وما زاد الأمر سوءاً سقوط لوح ألمينيوم من سطح المنزل المنهار، ليستقر في الجسد الجريح، مخترقاً إياه من الخاصرة إلى الخاصرة!

راح يتألـم بصمـت، ويحاول تحريك جسـده، دون جدوى.. فناداه رفيقه المقاوم ليطمئن عنه، فأجابه ساجد:

ـ أنا لا أستطيع النهوض.

وبعـد جهد قام رفيقه من تحت الـردم ليتفاجأ بساجد وقد أصيب بالشلل، ولم يعد يستطيع الحراك..

ومـا إن همَّ بحمله ليبعده، مـا أمكن، عن هذا المكان المستهدف، حتى قال له ساجد:

ـ أنـا سوف أستشهد.. لـن أبقى طويلاً بعد هـذه الغارة.. فلا تدع الإسرائيلـي يأخـذ جثمانـي، لأننـي طالما قتلتهـم وأسرتهـم.. فلن أعطيهم شرف أسر جثتي!

الشّبَح!..

حمله المجاهد إلى خارج المنزل، ثم قعد به، على مسافة أمتار..

كان ساجد يتألم من هول الإصابة وشدة النزيف.. فاستجمع ما بقي من قوته المتلاشية، وراح يتمتم بكلمات هي أقرب إلى النجوى.. وصايا، ومسامحة، وعدم تركه أسيراً بيد العدوّ، وإمكانية نقله بسيارة، بعيداً عن المنطقة.. وكلام آخر لم يفهمه المجاهد لأن قوة ضغط الغارة أفقدته السمع، في تلك اللحظة..

فترك صاحبه، في مكانه، وخطا بضعة أمتار، وهو ينادي الإخوة، عسى أن يسمعه أحد.. ثم رجع إلى صاحبه ليجده قد استشهد وفارق الحياة، بعد أن أسلم الروح إلى بارئها..

التشييع المهيب

بقي الجثمـان الطاهر للشهيد، في بيت ياحون، قرب ذلك المنزل الـذي استهدفه الطيـران الإسرائيلـي، حوالي أسبـوع، وذلك بسبب تعـذر انتشال الجثمـان، والمعارك دائرة.. كأنَّ تلـك البلدة الجنوبية التي دافـع عنها بروحه ودمه، كرهت أن يفارقهـا سريعاً، فاحتضنته أسبوعاً بكامله لتتبرك بدمه! وإذا بذلك المنزل الجنوبي العنيد الذي روى الشهيـد بدمـه، أرضه الأبية، يدفـع ثمن إيـواء الشهيد مرتين، قبـل استشهاده، فيدمر ويحترق بكامله.. ويبقى مصراً على احتضان جثمانه سبعة أيام متواصلة..

أمـا أهـل الشهيد فكانوا على قلـقٍ عليه شديد. لـم يعرفوا سريعاً بالنبأ الفاجع..

منذ مبدأ الحرب كان الحاج علي، توأم الحاج ساجد، على اتصالٍ شبـه دائم بشقيقه. وكان، خلال المعارك، يطمئن الأهل وزوجة أخيه بقوله: «يسلم عليكم الحاج.. ويقول لكم: انتظروا اليوم مفاجآت»!

إلى أن أعلن وقف اطلاق النار، يوم الاثنين. فشعرت زوجة ساجد

بالقلق لأن سِلفها، الحاج أبا مهدي، لم يتصل بها، منذ أربعة أيام..

لقد كانت، خلال الحرب، عند ذويها، في بيروت، فقالت لوالدتها:

- لا أستطيع أن أنتظر أكثر من ذلك.. هيا بنا إلى الدوير لنذبح الخروف ونحتفل بالنصر، كما نذرنا.. وهناك، أنتظر عودة حبيب القلب منتصراً.

سمعت ابنتها زهراء ذلك، فراحت البهجة تشع من عينيها، وسألت أمها:

- أيعني هذا أن أبي سيعود إلى البيت قريباً، وينام عندنا كل يوم، فأنعم بحنانه الدافق، كما تنعم كل الفتيات بآبائهن؟!

فأجابتها بابتسامة مشرقة، ذكرتها بابتسامة أبيها:

- نعم، إن شاء الله، يا حبيبتي.

بعد حوالى ساعتين، اتصل أبو مهدي بزوجة أخيه، وأخبرها بأن الاتصال مقطوعٌ مع الحاج... فساورها القلق، وصعد الدم إلى رأسها، وراحت تتناهشها الهواجس والوساوس: «أيمكن أن يكون حبيبي قد...؟ لا! لا قدر الله!».

بقي عندها أملٌ وإن كان ضعيفاً - بأنه لا زال في مكانٍ لا إرسال فيه. أو أنه محاطٌ بالأعداء، في منطقةٍ ما، ولا يقدر أن يتصل.

بعد ذلك بفترة مرت كأنها دهر طويل، اتصل أحد الإخوان بالحاج علي وأخبره بأن الاتصال بالحاج ساجد ما زال مقطوعاً.. ولكن الاحتمال الأكبر أنه قد استشهد.. ثم أكد له الخبر الأليم، في اتصال لاحق.

بالرغم من أن أبا مهدي كان يعيش في جوِّ الاستشهاد، ويتوقع

الشهـادة لأخيه، إلا أن الخبر الفاجع قد سقط فوق رأسه كالصاعقة، وراحت براكين الدم تغلي في شرايينه.. لكنه تجلد وتصبر.. ثم أخبر جميع الأهل قائلاً لهم:

ـ اسمعوا، لقد استشهد محمد!. الآن، ابكوا ما شئتم، على الشهيد.. لكـن، ما إن يعرف الناس الخبر ويتجمعوا، أريـد أن أراكم، جميعاً، مرفوعـي الرأس، ومفتخريـن.. لا ينطق لسانكـم إلا بعبارات الفخر والاعتـزاز بهذه الشهـادة المباركة.. حتى تعرف النـاس جميعاً، من كان هذا البطل!

عندما أحضـر جثمان الشهيد من مستشفـى الشيخ راغب حرب، استقبلـه شقيقـه التوأم علـيّ، مع بعض الأخوة والأصحـاب.. وقام بتغسيله ليكسب الرضا، منه، والشفاعة..

ولمـا شيع إلى روضـة الشهداء، فـي الدوير، كان تشييعـه مهيباً، رغـم أن عدداً من أهالي البلدة لم يكن قد عـاد إليها بعد.. فعز على الكثيرين فقده، وعزَّ عليهم أكثر، ألا يكونوا في وداعه.

إلا أن بتلات الورود، وزخات الأرز، وعبارات الفخر والاعتزاز بتلك الشهادة المباركة، هي التي رافقته إلى مثواه الأخير..

كانت اللحظات الأخيرة، قبـل مواراته الثرى، شديدة الوطأة على الجميع.. فهـو الابن البارّ، والأخ المحبّ، والـزوج الوفيّ.. وهو.. نعم الأب العطوف على أولاده! أين من عطفه حنان الأمهات؟!

كمـا أنه المؤمن الصـادق، والرجل الصالح المضحـي تجاه أهله وأهل بلدته ووطنه.. وها هو يفارق الجميع إلى الأبد.. فكيف لا يبكونه

بحـرارة وتفجُّع؟! مع علمهم بأن نفسـه المطمئنة قد رجعت إلى ربها راضية مرضية، فدخلت في عباده.. ودخلت جنته، مع الشهداء..

هـا هي والدته تودِّعه بكلمات الرضى عنه.. وها هي زوجته تبكيه، وقـد خنق الدمع صوتهـا.. وذلك شقيقه، توأم الـروح والجسد، يودِّعُ نصفه، إلى الأبد.

كانـت لحظـاتٌ عصيبـةٌ جـداً، وحزينـةٌ جـداً، إنما مليئـةٌ بالعز والشـرف.. فقـد ختـم الله تعالى حياة هـذا الرجل بمـا كان يتمناه، ويحلم به، ويعمل له منذ فُتُوَّتِه..

هو لـم يعش لهذه الدنيا الفانية.. وها هي الأرض التي طهرها من الأعـداء، وجبل ترابها بدمه الطهور، تفتح ذراعيها لاحتضانه.. وتلك الأعلام الصفراء التي أحبها، وطال ما لوح بها للنصر.. ها هي تجلله وتتبرك به.

أما النائـب الحاج محمد رعد فكان له الحصـة الأخيرة، في توديع الشهيد، قبل مواراته الثرى.. لطال ما أحب هذه الشخصية الفذة، في حياتها وجهادها.. فانحنى على الجثمان الطاهر، وقبل رجلي الشهيد..

فقال له الشباب:

- يا حاج، إن رأس الشهيد من هنا!

فأجابهم، والدمعةُ تترقرق في عينيه:

- نعـم، أعرف.. ولكنني أريد تقبيل قدميه.. لأنه، لولا هذه الأقدام الطاهـرة التي خطـت وأكلت منها الجبـال والوعور.. لمـا كنا نعيش اليوم، بعزةٍ وكرامةٍ وإباء!

الشهيد.. في عالم الرؤيا!

إن الحب العظيم الذي يكنه له أهله وصحبه وجيرانه، وعدم تصديقهم أن هذا المقاوم البطل الذي ملأ دنيا المقاومة، وشغل أعداءها، قد مات.. جعلا كثيراً من المحبين المفجوعين يرونه في عالم الرؤيا، سواء قبل استشهاده، أو بعده.

فقبل أسبوع من نهاية الحرب، رأت والدته، في ما يرى النائم، أن بابها قد طرق. وعندما قامت لتفتح، إذا بشخصين يلبسان الثياب البيضاء. فأدركت أنهما من الملائكة. ولما سألتهما عن سبب الزيارة، قالا لها:

ـ لقد جئنا لنأخذ أحد أولادك.

فردَّت عليهما ببراءة المؤمن المسلِّم أمره لله:

ـ أنا زوجت كل أولادي.. لكن، بكلِّ الأحوال، تفضَّلا وانتقيا من شئتما منهم.

وكأنَّ زوجة أخيه حسين كانت أيضاً، على موعد مع رؤياه، وفي التاريخ ذاته.. إذ رأته في منامها، قادماً إليهم، وهو يضحك

ضحكـة مميزة جـداً.. وقد حلق رأسه كما الحجيـج. فراحوا يسلمون عليـه ويقبلونه.. وعندما استيقظت، فتحـت المصحف، فإذا بالآية: «محلقين رؤوسهم.. وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة»!

أما الرؤى التي تلت الاستشهاد فكثيرةٌ، منها:

رآه أحـد إخوانه المجاهدين، على ضفة نهر، مع ثلة من الشهداء. وكان الشهيد ساجد في مكانٍ أعلى من الآخرين. وكلما كانوا يسألونه أن يسمح لهم بالصعود إليه، كان يجيبهم: «أنتم لا تستطيعون الصعود إلي.. أنا أنزل إليكم».

ورآه رفيـقٌ له آخـر، في نومه، فـراح يسأله عما حصـل معه، ولم استشهد؟ وكيف هي حاله في عالم الآخرة؟

فأجابه ساجد، وهو يرفُلُ بالأبيض:

«سأجيبك عن أسئلتك الثلاثة بجواب واحد فيه غناء: ما إن أصبت بالغارة واستشهدت حتى تلقاني أهل البيت عليهم السلام.. وكفى»!!

أمـا شقيقـه عليّ فقـد رآه، ذات ليلـة، وسأله عمـا حصل معه في الحرب. فأجابه بقوله: «كلُّ الأمور كانت متماسكة وقوية، في الجبهة.. صغيرها وكبيرها كان يتابع بدقة، وكنا نحقق الانجازات».

فعـاود شقيقـه السؤال قائـلاً: «فكيف أصبت واستشهـدت؟ فأراه شكله ممدداً على الأرض، ووجهه يسطع كالبدر.. أما الثياب التي كان يرتديها فهي نفسها التي استشهد بها.

وأراه أيضاً، مشهداً مصوَّراً لأعداد كبيرةٍ جداً، داخل بساتين تجري من تحتها الأنهار.. ثم قال له: «لو جئتُ إليك لأريتك أعدادهم أكثر»!

وتابع الحاج علي رؤيـاه، قائلاً: بعد ذلك، التقى ساجد بأحد قادة المقاومة، فضمَّه إلى صدره وقبَّله.

ثمَّ استفاق أبو مهدي متضايقاً، لأنه كان يتوق إلى معرفة ما حصل مع أخيه، بعد استشهاده. فلمَّا عاد إلى النوم، رآه من جديد، فسأله.. فأجابه الشهيد: «الردم هو الذي آذاني وأدَّى إلى استشهادي».

ثمَّ أراه جسمه.. فإذا هو لا يشكو من شيء أبداً.. مع أن جسده كان قد تحلل أواخر الحرب!

وأمـا زوجـة شقيقـه فقد رأتـه، وقد جاء إلـى المنـزل منهكاً من رهـق العمل. فسألته بدهشة: «ولكنـك استشهدت!». فأجابها: «ها أنا أمامك». وليثبت لها أنه ما زال حياً يرزق بينهم، فقد ترك لها ورقتين، خُطَّ بالأحمـر على إحداهما، كلمة «مسكافعام». ففهمت، في المنام، أنه لا يزال يتابع عمله الجهادي، كما لو كان حياً.

حتـى كاتب هذه السطور الذي تصدَّى لهذه المهمَّة الصعبة، كتابة سيرة حياة الشهيد، كان له نصيبٌ من الرؤيا:

فلكثرة ما قرأ عن حياة هذا المجاهد الكربلائي، وسمع عن مآثره وبطولاته..تمنَّـى لو أنه رآه وصادقه وآخاه، قبـل استشهاده. لكن الله تعالى منَّ عليه برؤيته في الحلم.. رآه بصحَّة جيدة، يلبس ثياباً داكنةً غير سوداء، هي ثياب القتال. كان مبتسماً، أقرب إلى الضحك، يركب سيـارة «جيـب» عسكرية، وينظر إليه داعياً إيـاه للركوب معه. وما إن صعـد إلى جانبه حتى انطلـق بسرعة خاطفة في جولـةٍ بين المحاور التـي كان يجـري فيها القتـال.. ولمَّـا سأله عن سبب هـذه السرعة،

أجابه ساجد، والابتسامة لا تفارق ثغره:

- هنا، هذه هي السرعةّ وإلاَّ فالتسلُّل على القدمين!

لم يقل غير تلك العبارة. ولكن، قبل الافتراق، يتابع الكاتب: «أهداني الشهيد الحي قميصاً بلا أكمام، هو إلى القطنية، أقرب.. بلونٍ محيَّر، بين الأزرق والرماديّ.. وبغمضةِ الطَّرْف، تحول إلى شعلةٍ من نور.. خفقت.. فحلقت في طريقها إلى النجوم!».

في رحاب الله

يـكاد ضريح الشهيـد لا يخلو من زائريه من الأهـل والرفاق.. من محبيـن طـال ما عاشـوا معه، وتأثـروا بسلوكـه وأخلاقـه وجهاده.. فأكبـروا شهادته واعتزوا بها.. لكنهم حزنـوا لفراقه، وعزّ عليهم أن يهنأوا بطعامٍ أو شراب، وهو بعيدٌ عنهم في غيبةٍ أبدية..

فهـذا أحد رفاق الجهاد يقف أمـام ضريحه، دامع العين، معتصر الفـؤاد، فيناجيه قائلاً: «هنيئاً لك هـذه الشهادة، يا صاحبي وأخي.. لكننـا جميعاً نفتقـدك.. نفتقد شجاعتـك التي لا توصـف.. فتسري العدوى منك إلـى نفوسنا، فإذا بنا نقاتل كالأسـود الضارية.. نفتقد بسمتك الساخرة من طائرات العدو ودباباته، فتشيع فينا الثقة بأنفسنا والاطمئنان إلى النصر.. بينما نكون في أشد المعارك ضراوةً!

مـاذا لا نفتقد فيك؟! محبَّتـك لجميع المجاهديـن كأنهم إخوتُك وأبنـاؤك؟ أم حراساتك عنا في المحاور لكي ننام ونرتاح، بينما أنت فـي أمسِّ الحاجة إلى الراحة، جراء جهـادك المتواصل، وجراحاتك النازفة؟!

الشّبَح!..

نـم قريـر العين، يا صديقي.. فقـد أديت واجبك وأكثـر.. وها أنا أقـف خاشعاً، فـي محرابك.. وأطمئنك إلى أننـا نحن، تلاميذك في النضـال، نواصل حمل الراية من بعدك.. وعلى درب شهادتك.. فإلى لقاءٍ قريب، بإذن الله».

وهذا شقيقه التوأم الحاج علي يزوره باستمرار، فيقرأ له ما تيسر من سور القرآن، ويقرأ له الزيارة، ثم يناجيه:

«يـا أخي، ورفيق عمري يا نصفي الآخر.. لم نفترق، يوماً، منذ أن ولدنا معاً.. فكيف تتركني الآن؟! هلا انتظرتني، ريثما يقضي الله في أمري، فنرحل سوياً، عن هذه الدنيا، كما جئناها سوياً.. ولكنه قضاء الله تعالى، فأكرم به قاضياً ومقدراً، ثم إنك أنت الذي اخترت طريق الجهـاد، فأكرمك ربك، في الدنيا، بعلوِّ الشأن، وحجم المسؤولية.. ثـم أكرمك، سبحانه، في نهاية المطاف، بالشهادة في أقدس معركة تاريخيـة! وأي كرامـةٍ للشهيد، وقد تحدث عنه الأعـداء بما يوجعهم ويقض مضجعهم؟!

أبشـر، يا أخي، إن اسـم «ساجد» قد بات علـى كل لسان، مفخرةً لنـا ولكل أهل الدوير.. بل لكل لبنان الـذي ضحيت بمهجتك الغالية، دفاعاً عن ترابه الغالي!

وهـا هو اسمك «ساجد» يطلق على كثير من المواليد الجدد، تيمناً وتبركاً بك، يا بطل المقاومة.. يا شبح حزب الله..

ففي جنان الخلد، يا رفيق العمر»!

أما والدة الشهيد فكلمـا زارته، جثت على ضريحه باكية، وغسلت

بلاطه بدموعها... فإذا أسعفتها العبرات اختنق صوتها بألم الفراق، وتلظى قلبها في كسفٍ من النار.. ولكنها صابرةٌ صبر المؤمنين، على المكاره..

ناجته، في ليلة جمعة:

«قـم، يـا حبيبـي، يا محمـد، فقد طال نومـك.. مـا عودتني على فراقـك، كل هذه المدة.. كنت، دائماً، كلما تعود من غيبتك، تزورني، وتبشرني بقدومـك الحبيب.. فتقبل يدي ووجهـي.. فأغمرك وأضيع في رائحتك الطيبة..

حبيبـي ساجد، قم لترى أصحابك واحبـاءك ينشدون لك أناشيد العز، ويؤلفون قصائد الفخر والفرح، ويهدون ريعها الشهداء.. إكراماً لعينيك!

كم يقتلني فقدك، يا نور عيني! فأبكي، وحدي، في ظلال الليل.. أما أمام الناس، فأنا أبتسم، وأكلمهم عن بطولاتك.. لأنَّ أخاك أبا مهدي أكد علينا جميعاً أن نظلَّ مرفوعي الرأس، مفتخرين بشهادتك.. لكنَّ بعض الناس ظالمون. فإذا رأوني مبتسمةً أو ضاحكة، ظنوا أن حرارة حزنـي عليك قد هبطت.. سامحهـم الله.. لا يـدرون أن قلبي يكتوي بجمر الفراق!

ففي جنَّة الرحمان، يا نور عيني!».

وأمـا زوجتـه ناهد فتـزوره، مـع أولادها، معظـم أيـام الأسبوع. فيقـرأون له الفاتحـة والدعاء والزيـارة.. وتتماسك، أمـام أولادها، مؤمنةً صابرة، حتى لا تنهار، وينهاروا معها، على ضريح والدهم.

لكنها، عندما تكون، وحدها، ترتمي فوق الضريح، وتحتضن بلاطه بكلتـا يديها.. وتستسلم لعواطفها الدفينة، وتبكي ما شاء لها البكاء.. وما حاجة الضريح إلى الغيث؟! فها هي دموعها تنهمر، فوقه، مدرارة كينبوع ماءٍ ثَرّ.. فتغسل سطحه وجنباته من غبائر الزمن. فإذا أمهلتها دموعها، بعد حين، راحت تبث الشهيد شكواها وتناجيه:

حبيبـي ساجد، لمن تتركني بعدك؟! لقـد كنت تملأ دنياي سعادة وحبوراً.. أما الآن، فإن هذا الفراق الأبدي ثقيل جداً عليّ.. لا أستطيع أن أحتمله..

كنـت تعود، بعـد كل معركـة، وبشائـر النصر تشرق مـن عينيك الخضراويـن الجميلتيـن.. كنـت أفرح بعودتـك ولو مصابـاً بجراح نازفة.. كانت إصاباتـك أوسمة البطولة علىصدرك، وتاج عزٍّ وفخارٍ فوق رأسي الشامخ..

حبيبـي، صحيـح أن أهلي وأهلك، إضافةً إلـى مؤسسة الشهيد، لا يتركوننـي محتاجة إلـى أي شيء.. ولكنني أفتقـدك.. من سيأخذني إلى حج بيت الله الحـرام، وإلى زيارة الأئمة المطهرين، كما فعلت؟! مـن سيحمل ابننا جواد، على كتفيـه، طيلة زيارة المشاهد المقدسة، في العراق، رغم الحرارة الشديدة، وبعد المسافات.. وأنت تسير على قدميك المصابتين؟!

من كان ينام، قربي في المستشفى، عدة أيام.. كلما كنت ألد ولادة قيصريـة؟! مـاذا لا أذكر فيك يا حبيبـي؟ أأنسى أنك لـم توجه إليَّ خلال حياتنا معاً، كلمة قاسية؟! أم أنسى ابتسامتك الدافئة المشرقة

التي كانــت تشيع البهجة والسرور في دنيانا جميعــاً؟! أم عزَّة نفسك وإبــاءك، إذا كنت رقيــق الحال، فلا تذكر حاجتك لأحــد، بينما كان الجميع يحتاجون إليك، فتسعى جاهداً في خدمتهم!!

نم هانئاً، يا أبا علــي.. نم مطمئن البال.. فإن صورة وجهك النيِّر لــن تفارق خيالي مــع الأيام.. ولن تمحى من قلبي إلى الأبد.. وها إني قد حكت بإبرتي، طيفك الحبيب في وشاحي الهفهف..

ألا فلتطمئن، يا محمد، سأرعى أولادنا كما تحبُّ وتهوى.. سأربيهم علــى حبِّ الله ورسوله وأهل البيــت المطهرين، فتلك وصيتك.. وعلى حب المقاومة، عروســك الأولى والأخيرة.. لا تعجب.. فالمقاومة هي الضرَّةُ الوحيدةُ في الكون، التي لا أغارُ منها.. بل أعشقُها مثلك! ففي رفارف الخلد، يا ساجد.. في رحاب الله، يا حبيب العمر!

الفهرس